بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث والثلاثون[1]

فى ذكر دعائم الإسلام الخمس التى بنى عليها[2]

أول ذلك فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها، وهى شهادة المقربين، وشهادة الرسول ﷺ، وفضلها للموقنين

قال الله تعالى، وصدقت أنبياؤه لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩]. وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلمِ اللهِ وأن لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤].

ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أنّ الله تعالى واحد لا من عدد، وأولُ لا ثانى له، موجودٌ لا شك فيه، حاضر لا يغيب، عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حى لا يموت، قيُّوم لا يغفُل، حليم لا يَسفَه، سميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخِرٌ بغير حدٍّ، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه، ولا أولية لقِدَمه، ولا غاية لأبديته، آخرٌ فى أوليته، أولٌ فى آخريته، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له، ولا منفصلة عنه، وأنّه أمامُ كلِّ شىء، ووراء كل شىء، وفوق كل شىء، ومع كل شىء، وأقربُ إلى كل شىء من نفس الشىء، وأنه مع ذلك غيرُ مَحَلٍّ للأشياء، وأن الأشياءَ ليست محلاً له،

(١) فى (د): «الفصل الثانى والثلاثون».

(٢) ما ذكره أبو طالب فى هذا الفصل من أحكام واستنباطات وأوصاف، هو كلام عزيز نادر نفيس، لا تجده مقيداً مجموعًا فى كتاب آخر، فعَضّ عليه بالنواجذ وأعد قراءته مراراً حتى يقع فى قلبك وعقلك.

وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكلِّ شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

الجوُّ زَوْجُه الفضاء من ورائه، والهواء زَوْجه المكان من ورائه، والحول زوجه[1] البعد من ورائه. وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات، متصلات بالأجرام اللطاف، ومنفصلات عن الأجسام الكثاف، وهي أماكن لما شاء، داخلة في قوله: ﴿ومِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَينِ﴾ [الذاريات:٤٩]، داخلة في قوله ﷺ: «ربنا لك الحمدُ ملءَ السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعدُ».

والله ـ جل جلاله وعظُم شأنه هو ذات منفردٌ بنفسه، متوحدٌ بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء، باينٌ من جميع خلقه، لا يحل الأجسامَ، ولا تحله الأعراضُ، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء، وليس في الخَلق إلا الخلق، ولا في الذات إلا الخالق. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وإنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقدرة وعظمة، وكلام ومشيئة وأنوار، كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائمًا موجودًا بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وإنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له الخلق والأمر، والسلطان والقهر، يحكم بأمره في خلقه وملكه ما شاء كيف شاء، لا معقِّب لحكمه، ولا مشيئة لعبدٍ دون مشيئته، إذا شاء شيئًا كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبدٍ على طاعته إلا بمحبته، وهو واحد في جميع ذلك، لا شريك له، ولا معين في شيء من ذلك، ولا يلزمه إثباتَ الوعيد، بل المشيئة إليه في العفو، ولا يجب عليه في الأحكام ما أجرى علينا، ولا يُختبر بالأفعال، ولا يشير بالمقال. حكيم عادل بحكمة وعدل، هما صفتاه لا تُشبَّه حكمته بحكمة خَلْقه، ولا يُقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم. قد جاوز العقول، وفات الأفهامَ والأوهامَ والعقولَ، هو كما وصف نفسه، وفوق ما

(١) «زوجه» في المواضع الثلاثة بالمطبوعة: «وجه و»، وأثبت ما في الأصول الثلاثة.

وصفه خلقه، نَصِفُه بما ثبتت به الرواية وصحّت عن رسول الله ﷺ.

وإنه ليس كمثله شيء في كل شيء، بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأدوات. وإنه سبحانه وتعالى لم يزل موجوداً بصفاته، كلها لم تزل له، وإن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو متفردٌ به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثَّل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس، ولا بجنس من شيء، ولا يزدوج إلى شيء، وإن ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت محدَث كله ومُظهَر. كان بعد أن لم يكن، ولم يكن قديمًا ولا أول، بل كان بأوقات محدثة، وأزمان مؤقتة. والله تعالى هو الأزليُّ الذى لم يزل، الأبديُّ الذى لم يَحُلْ، القيوم بقيومية هى صفته الديموم، بديمومية هى نعته، أولٌ بلا أول، ولا عن أول، آخرٌ لا إلى آخرٍ، بكينونةٍ هى حقيقته. أحدٌ صمدٌ لم يلد، وبمعناه لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء، ولم يتولد منه شيء، ومثل ذلك لم يُخلق من ذاته شيء، كما لم تُخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عمّا يقول الملحدون من ذلك علواً كبيراً.

• ذكر فرض شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى الكبير المتعال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُونَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال عز وجل: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠].

ففرض شهادة الرسول ﷺ أن تشهَد أن محمداً رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، لا نبى بعده، وكتابه خاتم الكتب، لا كتاب بعده، وهو مهيمنٌ على كل كتاب، ومصدقٌ لما سلف من الكتب قبله. وأن شريعته ناسخةٌ للشرائع، قاضيةٌ عليها إلا ما أقرّه كتابه ووافقه، وكتابه شاهدٌ على الكتب وحاكم عليها. وأنه هو الذى بشّر به عيسى عليه السلام أمته، وهو الذى أخبر به موسى عليه السلام أمته، وهو

المذكور فى التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عز وجل المنزَّلة، وهو الذى أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم، وهو الذى أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به، وأمرتهم بتصديقه، وأخبرتهم بظهوره. وأن موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول فى شريعته، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرةٌ بالله لجحودهم رسالته، وأن إيمانهم بكتابه مفترضٌ عليهم، مأمور به فى كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم، وأن طاعته ومحبته فريضة واجبةٌ على الكافة كطاعة الله تعالى، واتباعَ أمره واجتنابَ نهيه مفترضة على الأمة إيجابًا أوجبه الله تعالى له، وفرضًا افترضه على خلقه متصلٌ بفرائضه.

• ذكر فضائل شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿قُل إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِر لَكُم ذُنُوبَكُم﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال الرسول ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وقال ﷺ: «لو أدركنى موسى وعيسى ما وسعهما إلاّ اتباعى». وروينا فى لفظ آخر: «ثم لم يؤمنا بى لأكبَّهما الله فى النار».

وحدثونا فى الإسرائيليات أن رجلاً عصى الله تعالى مائتى سنة، فى كلها يتمرد ويجترئ على الله. فلما مات أخذ بنو إسرائيل برجله وألقوه على مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن غسِّله وكفِّنه وصلِّ عليه فى جميع بنى إسرائيل، ففعل ما أُمر به، فعجب بنو إسرائيل من ذلك، وأخبروه أنه لم يكن فى بنى إسرائيل أعتى على الله ولا أكثر معاصٍ منه. فقال: قد علمتُ، ولكن الله تعالى أمرنى بذلك. قالوا: فاسأل لنا ربك. فسأل موسى عليه السلام ربه فقال: يا رب، قد علمتَ ما قالوا. فأوحى الله تعالى إليه أن صَدقُوا، إنه عصانى مائتى سنة، إلا أنه يومًا من الأيام فتح التوراة، فنظر إلى اسم حبيبى محمدٍ مكتوبًا، فقبَّله ووضعه على عينيه، فشكرتُ له ذلك، فغفرت له ذنوب مائتى سنة.

وحُدِّثنا فى معناه عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت مؤاخيًا لأبى لهب،

مصافيًا له، فلما مات وأخبر الله تعالى عنه بما أخبر، حزنت عليه، وأهمنى أمره، فسألت الله تعالى عليه حولاً أن يرينى إياه فى المنام. قال: فرأيته يلتهب نارًا، فسألته عن حاله فقال: صِرتُ إلى النار فى العذاب، لا يُخفَّف عنى ولا يروَّح إلا ليلة الاثنين فى كل الليالى والأيام، فإنه يُرفع عنى العذاب. قلت: وكيف ذلك؟ قال: وُلد فى تلك الليلة محمد ﷺ، فجاءتنى أميمة فبشَّرتنى بولادة آمنة إياه، ففرحت بمولده فأعتقت وليدة لى فرحًا منِّى به، فأثابنى الله تعالى بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين لذلك.

وقال الله تعالى فى تحقيق المحبة: ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيهِم﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. فمن محبة الرسول ﷺ إيثار سننه على الرأى والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول. وعلامة محبته اتباعه ظاهرًا وباطنًا.

فمن اتّباعه ظاهرًا: أداء الفرائض، واجتنابُ المحارم، والتخلق بأخلاقه، والتأدبُ بشمائله وآدابه، والاقتفاءُ لآثاره، والتجسس عن أخباره، والزهد فى الدنيا، والإعراض عن أبنائها، ومجانبة أهل الغفلة والهوى، والترك للتكاثر والتفاخر من الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة، والتقرب من أهلها، والحبُّ للفقراء والتحبب إليهم وتقريبهم، وكثرة مجالستهم، واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا، ثم الحبُّ فى الله للقريب المحب[1]، وهم العلماء، والعبَّاد، والزهَّاد، والبغضُ فى الله للبعيد المذنب[2]، وهم الظلمة المبتدعة والفسقة المعلنة.

ومن اتباع حاله فى الباطن: مقاماتُ اليقين، ومشاهداتُ علوم الإيمان، مثل الخوف، والرضا، والشكر، والحياء، والتسليم، والتوكل، والشوق، والمحبة، وإفراغ القلب لله، وإفراد الهم بالله، ووجود الطمأنينة بذكر الله.

فهذه معاملات الخصوص، وبعض معانى باطن الرسول، وهو من اتباعه ظاهرًا

(١) فى المطبوعة و(د، هـ): «للبعيد المبغض»، وأثبت ما فى (م) لأنه أصح.
(٢) فى المطبوعة و(د، هـ): «للقريب المحب»، وأثبت ما فى (م).

وباطنًا، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيبٌ موفور، أعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد كان سهل يقول: علامة المحبة لله اتباع الرسول، وعلامة اتباع الرسول ﷺ الزهد فى الدنيا. وقال أيضًا فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩]، قال: يطيع الله فى فرائضه، والرسول فى سننه.

فإذا اجتنب العبد البدع، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ، فقد اتبعه وقد أحبّ الله تعالى، وكان معه ﷺ غدًا مرافقًا فى منزلته.

• ذكر فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين:

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قَائِمًا بِالقِسطِ﴾ [آل عمران. ١٨]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

فشهادة الموقن بيقينه أن الله تعالى هو الأولُ فى كل شىء، وأقرب من كل شىء، وهو المعطى المانع الهادى المضل، لا معطى ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله، كما لا إله إلا الله، ويشهد قربَ الله منه، ونظره إليه، وقدرته عليه، وحيطته به، فيسبق نظره وهمُّه إلى الله عز وجل قبلَ كل شىء، ويذكره فى كل شىء، ويخلو قلبه من كل شىء، ويرجع إليه فى كل شىء، ويتألَّه إليه دون كل شىء، ويعلم أن الله عز وجل أقربُ إلى القلب من وريده، وأقرب إلى الروح من حياته، وأقربُ إلى البصر من نظره، وأقربُ إلى اللسان من ريقه، بقربٍ هو وصفه لا بتقريب ولا بتقرّب، وأنه تعالى على العرش فى ذلك كله، وأنه رفيع الدرجات من الثرى، كهو رفيع الدرجات من العرش، وأن قربه من الثرى ومن كل شىء كقربه من العرش، وأن العرش غير ملامس له بِحسٍّ، ولا مُفكِّرٌ فيه بوَجْس، ولا ناظرٌ إليه بعين، ولا محيطٌ به بدَرَك، لأنه تعالى محتجبٌ بقدرته عن جميع بريَّته،

ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب موقنٍ عالمٍ به، واجدٍ بما أوجده منه، من أن الله تعالى عليه، وأن العرش مطمئنٌ به، وأن الله تعالى محيط بعرشه، فوق كل شيء، وفوق تحت كل شيء، فهو فوق الفوق، وفوق التحت، ولا يوصف بتحت فيكون له فوق، لأنه هو العلى الأعلى أين كان، لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يُحَدُّ بمكان، ولا يُفقد من مكان، ولا يُوجد بمكان، فالتحت للأسفل، والفوق للأعلى، وهو سبحانه فوق كلِّ فوق، وفوق كل تحت فى السمو، هو فوق ملائكة الثرى كهو فوق ملائكة العرش. والأماكن للممكنات، ومكانه مشيئته، ووجوده قدرته، والعرش والثرى وما بينهما هما حد للخلق الأسفل والأعلى، بمنزلة خَردلة فى قبضته، وهو أعلى من ذلك، ومحيطٌ بجميع ذلك، بحيطةٍ هى صفتُهُ، وسَعَة هى قدرته، وعلوٌّ هو عظمته، بما لا يدركه العقل، ولا يكيِّفه الوهم، ولا نهاية لعُلوِّه، ولا فوق لسُمُوِّه، ولا بُعد فى دُنُوِّه، ولا حسَّ فى وجوده، ولا مس فى شهوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حيطة لحيطته.

وقد قال الله تعالى للكل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوقِهِم﴾ [النحل:٥٠]. وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعلَى﴾ [الاعلى:١]. وقال عز وجل: ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شيءٍ مُحيطٌ﴾ [فصلت:٥٤].

وإن الله تعالى لا يحجبه شيءٌ عن شيء، ولا يبعد عليه شيءٌ قريب فى كلِّ شيء بوصفه، وهو القدرة والدَّرَك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البُعد والحَجَبة. فالبعد والأبعاد حُكم مشيئته، والحدود والأقطار حُجُب بريَّته، والمسافة والتِّلقاء مكانةٌ لسواه، والنواحى والجهات موضع للمحدثات، والنهار والليل مسكن للمصرَّفات، والبعدُ والفضاء مكانٌ للمخلوقين، والتوسعة والهواء محل للعالمين، والأحكام والأقدار واقعةٌ على خلقه.

وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقولَ والأوهامَ، وسبق الأقدار، واحتجب بعزّه عن الأفكار، لا يصوره الفكرُ، ولا يَملكه الوهمُ، حُجب عن العقول يُسبِّح ذاته، ولم تحكم العقول بدرك صفاته، إذ ليس كمثله شيء فيُعرف بالتمثيل، ولا له جِنس فيقاس على التَّجنيس، وهو اللهُ فى السموات

وفى الأرض، ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم، غيرُ متصلٍ بالخلق، ولا مفارق، وغير مماسٌ لكونٍ، ولا متباعد، بل متفردٌ بنفسه، متحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقربٍ هو وصفه، وهو محيط بكل شيء بحيطةٍ هى نعته، وهو مع كل شيء، وفوق كل شيء، هو أمام كل شيء، ووراء كل شيء، بعلوٍّ ودنوٍّ هو قربه، فهو وراء الحول الذى هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذى هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، وليس هو - تعالى - فى كل هذا مكانًا لشيء، ولا مكانًا له شيء، وليس كمثله فى كل هذا شيء، لا شريك له فى ملكه، ولا معين له فى خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبيه له فى اتحاده، وهو أولٌ فى آخريته بأوليَّة هى صفته، وآخرٌ فى أوليته بآخرية هى نعته، وباطنٌ فى ظهوره بباطنية هى قُربه، وظاهر فى باطنيته بظهورٍ هو علوُّه، لم يزل كذلك أزلاً، ولا يزال كذلك أبدًا، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجرى عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزداد. هو على عرشه باختياره لنفسه، فالعرشُ حدُّ خلقه الأعلى، وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرشُ محتاج إلى مكانٍ، والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى. الرحمن اسمه، والاستواء نعته متصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا محيطة يجمعه، ولا خلق يُوجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفىٍّ لطفه، وجامعٌ للعرش وللحفظة بلطيف صُنعه، وموجدٌ ما أحبّ لمن يُحب من التجلى بمعانى أسمائه وصفاته، بخفى لطفه ولطيف قربه، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول. هو ممكن للعرش ببسطه فى توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، بخفى لطفه ولطيف قدرته، وهو لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلاّ فى أنوار صفته، ولا يوجد إلا فى سعة البسط، فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، وكذلك جعله فى كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان؛ مما جَلَّ فظهر، ومما دقَّ فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يُعرف إلا بشهوده، ولا يُرى إلا بنوره. هذا لأوليائه

اليوم بالغيب فى القلوب، ولهم ذلك غدًا فى المشاهدة بالأبصار.

ولا يعرف إلاّ بمشيئته، إن شاء وَسِعَه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كلُّ شيء، إن أراد عرفه كلُّ شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، إن أحبّ وُجِد عند كلّ شيء، وإن لم يُحب لم يوجد بشيء، وقد جاوز الحدود والمعيار، وسبق القَبْل والأقدار، ذو صفات لا تحصى ولا تتناهى، ليس محبوسًا فى صورة ولا موقوفًا بصفة، ولا محكومًا عليه بحكم، ولا موجودًا بلَمَم. لا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر فى صورةٍ لاثنين، ولا يرد منه بمعنًى واحد كلمتان، بل لكلّ تجلٍّ منه صورةٌ، ولكل عبد عند ظهوره صفةٌ، وعن كل نظرةٍ كلامٌ، وبكل كلمة إفهامٌ، ولا نهاية لتجلّيه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لأفهامه، ولا تكييف لمعانيه هذه، إذ ليس فى التوحيد كيف، ولا للقدرة ماهية، ولا يشبهه بهذه الأوصاف خلق، إذ ليس للذات كفؤ، إذا احتجب عن العَيان والأبصار رفع ذاته عن القلوب والأفكار، فلم يُخَيِّله عقل، ولم يصوِّره فكر، لئلا يملكه الوهم، فيكون مَربوبًا وهو ربّ. ولا يُنظر إليه بفكر، فيكون مقهورًا وهو قاهر. لا يعقل بعقل لأنه عاقل العقل، ولا يدرك بحيطة وهو محيط بكل حيطة، حتى يتجلى آخرًا بإحسانه، كما تجلى أولاً بحنانه، فيُشهَد بحضوره، ويُنظَر إليه بنوره، وليس هذا لسواه، ولا يعرف بهذا إلاّ إياه.

وهذا منه لأوليائه اليوم بأنوار اليقين فى القلوب، وهو لهم منه غدًا بمعاينة الأبصار فى دار الحبيب، أبد الأبد فى الجنان، يتجلى لهم بعظائم القدرة ولطائف الحنان، ويكلمهم بما لا غاية له من لذيذ المعانى. يتجلّى بصفات الجلال، ويظهر بمعانى الحسن والجمال، ويبدو بلبس البهاء والكمال، يجمع لهم بأول معنى من معانيه، بما يوجدهم به من النعيم والسرور والفضل والحبور، بكل نظرة أو كلمة أو قرب أو لطف أو عطف أو حنان أو إحسان جميع ما فرَّقه من نعيم الجنان، وينظر إذا أحبّ إلى ما يحب اختيارًا، لا تهجم الأشياء عليه فى نظره إجبارًا، ويعرض عما شاء اختيارًا، لا تعترض المنظورات فى نظره اضطرارًا، ويعرض فى نظره لكبرياء عزه، وينظر فى أعراضه بلطائف عطفه. المُلك فى قبضته، والخزائن

فى كلمته، والكون فى مشيئته، والملكوت كله بيده، والجبروت والعظمة سُبُحات صفته، ووجود الأشياء لا يضطره إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها؛ لأنه مقتدر قهار، وعدمها لا يضطره إلى أن يراها لسبق علمه بها؛ لأنها معلومٌ عَلِمهُ ذو الأخبار، ولأنه هو الجبار إذ الموجود والمعدوم يضطر غيره إلى النظر؛ لضعفه عن الامتناع، والعدم يضطر سواه إلى الفَقْد؛ لعجزه عن الاختراع.

وهو تعالى مباينٌ لسواه بعزّه، غير مماثل لغيره بقهره، ولأنّ المعدوم كالمحجوب، وهو تعالى يرى المحجوب، من الذرة من تحت الثرى من وراء السموات والأرضين، ولا يحجبنَّ نفاذ نظره إليها، ولا يمتعنَّ قربه منها، ولا يحجزنَّ قدرته عليها، ولا يجاوز دون حيطته بها، إذ الحجب واقعة على الخلق غير متصلة بالخالق، وبواطن الأشياء وغوامضها منكشفة للخالق. وهو أيضًا يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها فى أبد أبدها، كما يشهد ذلك اليوم أعنى من غد وبعد غد وما وراءه إلى يوم القيامة وما فيها. وهذا كله عدم لم يخلقه بعد، لأن علمه بذلك شهادة له؛ لأنه ليس بينه وبين علمه حجاب، فهو يشهد الكون من أوله إلى آخره من حيث علمه بعلم هو وصفه، ومشاهدةٌ هى نعته، ولأنّ كلامه بذلك يخبر بأنه قد كان دليلاً على شهوده المآب، لأنه شهد ما علم، كما علم ما به تكلم، فلم يتفاوت كلامه وعلمه، ولم يختلف علمه وشهادته، ومع ذلك كله فلا موجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القِدَم، ولا قيُّوم شاهدٌ إلاّ إياه. قوتّه كُنه قدرته، وقدرته دوامُ بقائه، ونظره سعة علمه، وعلمه مدى نظره، يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، فصحّ ذلك أنه نَظَر وعَلِمَ وتكلّم.

لا يدخل الترتيب فى صفاته، أعنى بقَبْل وبَعْد، ولا يوصف بوقتٍ وحدٍّ، ولا يشبه بالتعقيب بقوته وأحكامه، أعنى بثُمَّ ولِمَ، وإذا وحتى، ولزم على ذلك أنه يعلم بنظره وينظر بعلمه، فصارت الأوائل والأواخر لديه كشىء واحد، وكانت صفاته كلها آحادًا كاملات تامات، غير محدودة للمحدودات، ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات المؤقتات، إذ لم يكن لها محدثات، لأنها قديمة بقدمه، وكائنة موجودة

بكونه ووجوده، إذ الترتيب فى النعوت من وصف الخلق والأدوات لكونها محدثة مظهرات بحدودٍ وترتيب وأوقات، والله تعالى ليس كمثله شىء فى كل الصفات، فصفاته قديمة بقدمه، وكائنة موجودة بكائنته ووجوده، والأفعال محدثة مظهرات بحدود وترتيب وأوقات، فلا موجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القِدَم، ولا قيوم له فى الأبد والأزل سواه قبل وجود الوقت. والحدثان ليست صفاته ذوات جهات، فيتوجه إلى جهته فيدرك بصفة دون صفة، ولا ذاته ذات ذوات فيقبل على مكان دون مكان، فيضطره الترتيب للمخلوقات، ولا يدبر الأمور بأفكار فيشغله شأن عن شأن، ولا يدخل عليه الاعتراض فيتغير عمّا كان، ولا يخلق بآلةٍ فيستعين بسواه، ولا يعجزه قدرة فيحتاج إلى مباشرة يديه. يخلق بيده إذا شاء، وعن كلمته إن شاء، وبإرادته متى شاء، وبمعانى صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين إلى الكلام، وكلامه إليه كيف شاء كان.

خزائنه فى كلمته، وقدرته فى مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإن شاء قدّر، ومتى أحبّ ظهر، وبأى قدرة شاء استتر. هو عزيزٌ فى قربه، وقريب فى علوّه، حَجب الذات بالصفات، وحجبَ الصفات بالفعال. كشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصُّنع بالصَّنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات. هو باطنٌ فى غيبه، وظاهر بحكمه وقدرته، وغيبٌ فى حكمته، وحكمتُهُ شهادة ظاهرة بمحكوماته، وهى مجارى قدرته، وصنعه سرٌّ فى صنعته، وهى علانية مشيئته، ليس كمثله شىء فى كل صفة، ولا كقوله فى ماهيَّة.

وقد روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كلمةً مجملةً بالغة فى وصف التوحيد، أنه قال فى خطبته: الحمد لله الذى لم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن درك معرفته.

وروينا عن أحمد بن أبى الحوارى عن بعض علماء أهل المعرفة من أهل الشام أنه قال: رأى عزّ وجل خلقه قبل أن يخلقهم، كما رآهم بعد ما خلقهم.

وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال: أدخلهم الجِنان قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه.

وقال أيضًا: إن الله عز وجل أعز من أن يغضبه أفعالُ خلقه، لكنه نظر إلى قومٍ بعين الغضب قبل أن يَخْلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، فأسكنهم دار الغضب؛ وهو أكبرُ من أن يرضيه أفعال خلقه، ولكنه نظر إلى قومٍ بعينِ الرضا قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، فأسكنهم دار الرضا.

وقد روينا عن ابن عباس فى قوله عز وجل: ﴿هَل أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لَم يَكُن شَيئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]؛ يعنى: كان فى علم الله أنه يكوِّنه، وكأنه علّق قوله: «لم يكن» بقوله: «مذكورًا».

والله تعالى يخبر بما يكون فى الدنيا، وبما يكون فى القيامة وبما بعدها، بلفظ أنه قد كان لاستواء ذلك فى علمه آخرًا كأول، إذ لا ترتيب فى العلم، ولا حد ولا مسافة ولا بعد فى القدرة. وقد قال الله تعالى، وَمَن أصدقُ من الله قيلاً: ﴿أعندَهُ علمُ الغَيْبِ فَهُو يَرَى﴾ [النجم:٣٥] فنقصه بذلك وذمّه. وقال تعالى: ﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء.٢١٨ ـ ٢١٩] أى: ويرى تقلبك، وبه انتصب التقلُّبُ بالعطف على القيام.

وجاء فى التفسير: تقلبك فى الأصلاب الزّاكية، والأرحام الطاهرة، حتى أخرجك من بين أبَوَيك، لم يلتق لك أبوان على سِفاح قط.

وقيل: فى أصلاب الأنبياء، يقلّبك بالتنقيل فى صلب نبى بعد نبى، حتى أخرجك من ذرية ورثة إسماعيل وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال تعالى فى سمع الأصوات قبل خلق الأشباح: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوجِهَا﴾ [المجادلة:١]. فأخبر أنه سمع الأصوات فى القدم فى علمه قبل خلق المصوَّتين فى الحديث، فكيف لا يرى الكون عن آخره فى القدم بعلمه، قبل ظهورهم له تصورين بفعله؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرنَاكُم ثُمَّ قُلنَا لِلملائِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١]. والخلق والتصوير كانا بعد السجود لآدم، فأخبر عنه أولاً؛ لشهوده له، واستوائه فى علمه، إذ لا بد من كونه، فأشبه

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فى سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ استَوى عَلَى العَرشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والعرش قبل السموات والأرض، والاستواء صفته لم تزل به، ثم أخبر عنه أنه أخّر الترتيب، فالله سبحانه وتعالى عالمٌ بالكون قبل الكون، وناظر إلى علمه، لا حجابَ بينه وبين معلومه، وسامعٌ لما شهد، ومتكلم بما علم، فقد سبق النظر والسمع والكلام الكون كله من حيث سبق العلم والقدرة والمشيئة، فهو ناظر سامع متكلم بنفسه، من حيث كان عالمًا مقتدرًا مريدًا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالَمًا بعد عالَم فى وقت بعد وقت، فجاءوا على نظره وسمعه وكلامه كما كانوا فى علمه وقدرته ومشيئته، بغير زيادة ذرةٍ ولا نقصان خردلةٍ، ألاَ ترى أنه بقدرته وعلمه يرى يوم القيامة وما فيها؟ والآخرةَ وما يكون منها على حقيقة ما أخبر عنه، لا يمنعه عَدَمُ الكون، ولا يحجبه بُعد التأخير. كذلك كان يشهد ما قد كان اليوم فى قديمه لعلمه به، وقدرته بقدرته عليه وحيطته به، لا يمنعه عدم كونه، ولا يحجبه فَقدُ ظُهوره، ولا يجوز أن يدرك سبحانه وتعالى اليوم ما لم يكن أدركه فى أزله، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علمه فيما لم يزل، فيكون متكلِّمًا بما لم يشهد، وهو معلومه منطوٍ فى علمه، أو يكون مستزيدًا بما أظهر حين ظهر، وهو فى قبضته وغيبه، جلّ عن ذلك وصفه، وعلا عن هذا جلاله وعزه؛ لأن نظره سَعة علمه، وعِلمَهُ حيطةُ نظرِه، فهو ناظر إلى ما علمه بوصفه، لا يختلف عليه أوصافه، فالكون موجودٌ له بعلمه، لسبق علمه به، ولا بيان له فى علمه، ولا أثر له فى وصفه، ولا وجود للكون فى وجود كينونته، ولا قِدَم له فى قِدَم أزليته وذاته؛ لأن علمه ليس محلاً للكون، ولا هو حالٌّ فيه؛ ولأن أوليته سبقت الكونَ والمكان، فليس لهما فى قِدَمه قِدَم كما أنه تعالى يشهد الآن ما يكون من العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، لا يختلف الأواخر والأُوَل فى صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم، لأنها معلوم علمه، وموجود إرادته، فهو سبحانه وتعالى واجدُ الأشياء به لا بها، وناظرٌ إليها فى علمه لا بوجودها؛ لاقتداره عليها، وإحاطة علمه بها، والكون معدوم لنفسه لتلاشيه، لأنّه سبحانه وتعالى خالقُ العدم كما هو خالق الوجود، ليس للعدم قِدَم مع قِدَمه فيكون ثانيًا

معه، ولا الكون كائنٌ موجودٌ بنفسه فيكون أولاً مع أوليته، جل الواحدُ المتحد بنفسه عن ثانٍ معه فى الأزل، أو شريك له فى القدم، ثم ظهرت الأشياء لنفوسها، فظهر بعضها لبعض بإظهاره، فوُجدت بإيجاده، وظهر عليها بإظهاره بحد ووقت، فلا يجوز أن يساوى بها سبحانه لما ظهرت، إذ ليس فى صفات الله حدٌّ ولا وقت، ولا أول لها ولا قبل، بل هو الأول الذى لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقتٍ ولا أمد، قائم بصفاته وصفاته موجودة له قائمة به، فمن شهد ما فصلناه بنور اليقين لم يدخل عليه قِدَمُ العالم، إذ لا قديم مع الله فى كينونية أزله.

ومن لم يهتد بما بيناه ووقف مع العقل، دخلت عليه شبهة قِدَم العالمِ، فألحدَ برؤيته قِدَم الحدثان، أو جحد قِدَمَ العالم بنفى وجود الحدث فيه. وهذا شرك بالصفات لترتيبه إيّاها بالمعقول.

ونحن بريئون من شهادته، مبطلون لدعواه، منكرون لشركه فى القدم، موحدون باليقين ما ألحد بالعقل؛ لأن من قال: إن شيئًا قديمٌ[1] مع الله تعالى، أو موجود بنفسه لنفسه، فقد أشرك فى الصفات. ومن قال: إن الله سبحانه نظر بعد أن لم ينظر، أو علم بعد أن لم يعلم، أو تكلم بعد أن لم يتكلم، فقد قال بحدوث الصفات، وقدّم عليها المعلومات، بل المعلومات منطويةٌ فى العلم لا أثر لها فيه، والله قديم بعلمه، وواجد لمعلومه بنفسه عن علمه به، وناظر إليه بعلمه لقدرته عليه بقهره، لا بعدم معلومه، والمعلوم معدومٌ لنفسه غير موجود بنفسه، حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره لمن أظهره بعضًا لبعض لا لنفسه، إذ قد فرغ منه لعلمه به لا أنه قَرُب له نظره؛ كما لم يحدث به علمُه لنفسه، وعلمُه صفته لم يزل له، وهو قائم بوصفه، ولا يجوز أن يحدث له شيئًا لم يعلمه، كذلك لا ينبغى أن يفقد شيئًا لم يجده.

ومن اختلف عليه ما ذكرناه دخل عليه مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأن المعتزلة مجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لا يرى الشىء حتى يكون.

---

(١) فى المخطوط (م): «قديمًا... أو موجودٌ...».

واختلفوا فى العلم، فقالت العبَّادية من القدرية، وهم أصحاب عبَّاد: إن الله تعالى لا يرى الشىء حتى يكون، يُضاهون بذلك قولَ النظَّام وبِشر المريسى فى أن الله تعالى لا يرى الأشياء حتى تكون.

والجهمية مُجمعةٌ على اختلافهم أن الله تعالى لم يتكلم بالشىء حتى كان، ثم خلق الكلام، فقدَّموا الكونَ قبل كلامه، كما قدمه أولئك قبل نظره.

وقال الجميع بحدوث النظر، كما قالوا بحدوث الكلام والنظر، لأنهم قالوا بحدوث الأسماء بعد حدوث المسميات، وتقدُّم الاستطاعة من الخلق على الإرادة من الخالق. فاستوى بذلك شِركهم وخرجُوا به من التوحيد.

كذلك كذبت العبادية من القدرية أصحاب عباد يضاهون قول النظَّامية والمريسية، تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تَشَابه منه.

والمعتزلة أيضًا مجمعةٌ على نفى العلم والقدرة والمشيئة، إلا أنهم يقولون: عالمٌ ولكن لا يضطر علمه إلى شىء ولا يوجب شيئًا، فجعلوه كالظَّن من الخَلق، فقالوا: عالم بلا علم، قديم وقادر بلا قدرة، ومريد بلا إرادة سابقة، وقدَموا الاستطاعة من الخلق فقالوا: لئلا يلزمهم سبقَ المعلومات، وإن الإرادة والكلام من نعوت الأفعال مخلوقان.

والجهمية أيضًا مجمعةٌ أن الله تعالى لا يتكلم بوصفه أصلاً، وإنما يظهر فى أديم الفضاء الكلام بخلق الأعراض فى الأجسام. فكان هذا عندهم هو التوحيد، لئلا يثبتوا مع الله قديمًا.

وهذا عند أهل السنة والجماعة هو الإلحاد، لنفى قِدمَ الصفات، والقول بحدوثها، وانفصالها عن الذات. وليس يختلف أهل اليقين بحمد الله تعالى فى جميع ما ذكرناه، كما لا يختلفون فى صحة التوحيد. وهذه شهادة الموقنين، وإيمان المقربين، فلا يتشبهنَّ لك العقل بالمعقول عن شهود ما ذكرناه، فيعقلك عن النفاذ للشهادة، فليس يُشهدُ ما ذكرناه من صفات الشهيد بنور العقل، وإنما يُشهد بنُور اليقين؛ لأن خالقًا لا يُشبه بمخلوق. ومن ليس كمثله شىء، لا يشهد إلاّ بما ليس كمثله شىء، وهو نور اليقين من نور القادر، ومن لم يجعل الله له نورًا فما

له من نور.

وما ذكرناه من وصفه تعالى هو ظاهر التوحيد المتصل بفرض الشهادة، لا يجرى على ترتيب المعقول، ولا يُمثّل بقياس العقول؛ لأن نفيْ الصفات وإثباتها بالمماثلات موجودٌ فى رأى العقول، كما أن الكفرَ والضلال موجودٌ فى طبائع النفوس، لعدم شهادة الأبصار، ولفقد وجود مشاهدة الإلهية فى تخيُّل الأفكار، ولجريان المعتاد والعرف فى ظهور الأسباب.

كما حُدِّثنا أن بعض الصدّيقين دعا إلى الله سبحانه وتعالى بحقيقة التوحيد، فلم يستجب له إلاّ الواحد بعد الواحد. فعجب من ذلك، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم. قال: احجبنى عنهم. قال: كيف أحجبك وأنا أدعو إليك؟ قال: تكلّم فى الأسباب، وفى أسباب الأسباب. قال: فدعا إلى الله تعالى من هذه الطرق، فاستجاب له الجمُّ الغفير.

فإنما صحة التوحيد بإثبات الصفات وأوصاف الذات التى جاءت بها السُّنن وشريعة الرسول ﷺ، مع نفى الشَّبه والماهيَّة، ونفى الجنس والكيفية، ثم سكون القلبِ وطمأنينة العقل إلى الإيمان بهذا، والتسليمُ له لأجل نور اليقين الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه، لا بعلم العقل ونوره، لأن الخالق لا يرى بمخلوق، فالعقل مرآة الدنيا بنوره يشهد ما فيها، والإيمان مرآة الآخرة وبه ينظر إليها، فيؤمن بما فيها. والله تعالى إنما يُرى بنور اليقين، فهذا مرآة التوحيد، وفى هذا النور مشاهدة الصفات، وهو حقيقة الإيمان، وأعزُّ ما نزل من السماء، وهو السكينة المنزَّلةُ فى قلوب المؤمنين، لمزيد الإيمان، ولتعريف صفات المؤمن معها، بترك ضرب الأخبار بعضها ببعض، ومعارضة بعضها بعضًا، أو ترتيب بعضها على بعض، بل يؤمنُ بكلِّ خبر ورد فى الصفات والقدرة على حدته، كما يسلّم جميعها على الجملة بإسلامه، وإلا أدى ذلك إلى نفى بعضها، أو إبطال جميعها؛ لأنّا أخذنا الإيمان بمنَّة الله تعالى ورحمته من قِبَل: التصديق، واليقين، والنّقل؛ لا من قِبل: التقليد، وحسن الظّن، والعقل.

وأربعة أشياء تُسلَّم ولا تُعارَض اعتراضًا: أخبار الصفات، وأصول العبادات،

وفضائل الأصحاب، وفضائل الأعمال. ولولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبّب الإيمان إليها وزيّنه فيها، وكرّه الكفر وشانه عندها، لتاهوا فى الظلمات، وغرقوا فى بحار الهلكات، لظهور الأغيار ومعاينة الأسباب، ولغيب القدرة عن العيان، ولما ابتلوا به من الحجُب والأعيان، ولكنّ الله تعالى سلّم، وحبّب الإيمانَ فى القلوب وزيّن، وكرّه الكفرَ والعصيانَ وشَيَّن. وكذلك مدح المؤمنين بالغيب المستور، ومن ذلك سبق المقربون بمُشهادة النور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. فلولا أنهم كانوا فى ظلمة الطبع ما امتنّ عليهم من نور اليقين.

وكذلك جاء الخبر: «إن الله تعالى خلق الخلقَ فى ظُلمة، ثم ألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه اهتدى ومن أخطأه ضلّ».

وفى أحد المعانى من قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ وَيُثبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾ [الرعد ٣٩]، قال: يمحو الأسباب من قُلوب الموحدين ويُثبت نفسه، ويمحو الوحدانية من قلوب الناظرين ويُثبت الأسباب.

ولولا ان التوحيد لم يرسمه عارف قط فى كتاب، ولا كشفه عالم فى خطاب، يعجزْ عُلومُ العموم عن درَك شهادته، ولسبقِ إنكار العقول لضعفها عن حملِ مكاشفته، لَذكَرنا من ذلك ما يُبهر العقول، ويَبهت ذوى المعقول، ولكنا كرِهنا أن نبتدع ما لم نُسبق إليه، أو نُظهر ما تضطرب العقول بالحيرة فيه، وخِفنا من عدَم النصيب مما نذكره، فيعود على السامعين من نفعنا ضَرَرُهُ.

وحقيقة علم التوحيد باطنُ المعرفة، وهو سبقٌ[1] المعروف إلى من به تعرَّف بصفة مخصوصة، لحبيبٍ مقرَّبٍ مخصوص، لا يسع معرفة ذلك الكافة، وإفشاء سر الربوبية كُفر.

وقال بعض العارفين: من صرّح بالتوحيد، وأفشى سرَّ الوحدانية، فقَتْلُه أفضلُ من إحياء غيره.

(١) فى (م): «سرٌّ».

وقال بعضهم: للربوبية سرٌّ لو أُظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سرٌّ لو كُشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سرٌّ لو أظهره الله تعالى لبطلت الأحكام.

فَقِوامُ الإيمان واستقامة الشرع بكتم السرّ [الذى] به وقع التدبير، وعليه انتظم الأمر والنهى، والله غالب على أمره. وفوق ذلك علم التوحيد، والاسم منه وحدانى، فالتوحيد وصْفُه. وفوقه علم الاتحاد، فالوصف منه متحد. وفوقهما علم الوحدانية، والاسم منه واحد. وفوق ذلك علم الأحدية، والاسم منه أحد. وهذه أسماءٌ لها صفات، وأوصاف لها أنوار، وأنوارٌ عنها علومٌ، وعلومٌ لها مشاهدات، بعضها فوق بعض. وفوقَ كلِّ ذى علم عليم.

ثم علم التوحيد أولُ هذه العلوم، وعلوم هذه المشاهدات، وظاهر هذه الأنوار وأقربها إلى الخلق، فالاسم منه مُوحد، وههنا بان الخلق وظهر، فهذا توحيدُه الذى وحَّده به الموحِّدون من جميع خليقته، فعاد ذلك عليهم برحمته.

والمشاهدات الأول توحيد الرب تعالى نفسه بنفسه لنفسه قبل توحيد خلقه، فتوحيدهم إياه عن توحيده فيما كتبنا عنه، وأخفَيناه فيما أظهرناه، فهو محجوبٌ فى خزائن الغيوب عن البصائر والفهوم، قد جاوزَ علمَ الملكوت كله، فهو من ورائها فى خزائن الجبروت، وإنّما ذكرنا من ذلك قوت القلوب من علم التوحيد، وما لا بد للإيمان منه من المزيد.

وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: للعالِم ثلاثة علوم: علم ظاهر يَبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يَسَع إظهاره إلا لأهله، وعلم هو سرٌّ بين الله وبين العالِم هو حقيقة إيمانه، لا يُظهره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن[1].

وقال بعض السلف قبله: ما مِن عالِم يُحدِّث قومًا بعلمٍ لا تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة عليهم.

❊ ❊ ❊

(١) يؤيد هذا ما أخرجه البخارى، كتاب العلم، عن أبى هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءَين: أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم».

شرح ثانى ما بنى الإسلام عليه من الخمس، وهو الصلاة

• ذكر أحكام الصلاة:

وأول ذلك وصف الطهارة، أولها: فرائض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلِّى فى وقت الصلاة وإدراكها، وما يتعلق بها، وهيئات الصلاة، وآداب المصلِّى.

• ذكر فرائض الاستنجاء:

قال الله جلّ ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور». وقال عليه الصلاة والسلام: «الطهور نصف الإيمان». وقال: «مفتاح الصلاة الطهور».

فأول الطهارة الاستنجاء، وفيه فرضان، وأربع سنن.

أحد الفرضين: إزالة الحَدَث، والثانى: طهارة المزيل، وهو أن لا يكون رجيع دابة، ولا مستعمَلاً مرة، ولا عظم ميتة، ويكره له الاستنجاء بفَحمةٍ؛ لأثرٍ فى ذلك.

والسنن الأربع: وترُ الاستجمار ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا، والاستنجاء بالماء، ومباشرة الأذى بالشمال، ومسح اليد بالتراب.

فأما كيفية الاستنجاء فأن يأخذ الحجر بشماله ويُمره على مقعدته من مقدمها مسحًا إلى مؤخرها، ثم يرمى به هناك، ثم يأخذ الحجر الثانى فيبتدئ من مؤخر المقعدة فيمسحها مدًا إلى مقدمها، ثم يرمى به. ثم يأخذ الحجر الثالث، فيديره حول المسربة إدارة، فإن احتاج إلى حجر آخر فليجعلها خمسًا، وإن اكتفى بحجرٍ واحد فلا بد من ثلاث، وإن استجمر بحجرٍ كبير، ذى ثلاث شُعَب، أجزأه عن ثلاثة أحجار.

وفى الخبر: «من استجمر فليوتر». وكان ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد، وكان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل؛ لأنه كان لا يقعد فى فضاء، بل كان ينصب وراءه شيئًا، أو يقعد إلى حائط، أو نَشَزٍ من الأرض يستره، أو كَوْمٍ من حجارة يحجبه، ثم يستدبر ذلك.

وكان ﷺ لا يستقبل القبلة أيضًا، لغائط ولا بول، ولم يكن يرفع ثوبه للغائط حتى يدنو من الأرض. فأما من أراد أن يبول قريبًا من صاحبه، بحيث يراه ويحسه، فلا بأس بذلك، فإنها رخصةٌ من رسول الله ﷺ رفع الحياءَ منها بفعله؛ لأنّه كان عليه السلام أشدّ الناس حياءً، وكان يبول وإلى جانبه صاحبه، ليسنَّ التوسعة فى ذلك.

وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه، فقال: لا أحسبك تحسن الخراءة. فقال: بلى وأبيك إنى بها لحاذق. قال: فصفها لى. قال: أُبعدُ الأثرَ، وأعدُّ المدَرَ، وأستقبلُ الشِّيحَ، وأستدبر الريح، وأقعَى إقعاء الظبى، وأجفِلُ إجفال النعام.

والشيح نبت طيب الرائحة يكون بالبادية. والإقعاء فى هذا الموضع أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال أن يرفع عجزه.

وفى حديث سلمان: «علَّمنا رسول الله ﷺ كلَّ شىء حتى الخَراءة. أمرنا أن لا نستجمر بعظم ولا رَوْث، ونهانا أن نستقبل القبلة لبولٍ أو غائط، وأن يجلس أحدُنا على رجله اليسرى وينصب اليمنى». فأما وصف الاستبراء فهو أن يستفرغ الرجل بوله رويدًا، ولا يحرِّك ذَكَره، فينتشر البول على الحشفة، فإذا انقطع البول على مهَل مدَّ ذَكَره ثلاثًا من أصله إلى الحشفة مدًا رفيقًا لئلا ينتضح البول، ثم ينثره ثلاثًا ويتنحنح ثلاثًا. وإن فعل ذلك سبعًا سبعًا فقد بالغ. ثم يأخذ الحجرَ بيمينه، ويأخذ ذَكَره بشماله، ويمدّه عليه حتى يرى موقعه جافًا، فهناك طُهر حين انقطعت النّداوة. ومن مدّه إلى الأرض أو إلى حائط حتى يرى الجفوف عن أثره فمِثلُه، وهذا كافيه من الماء، ما لم ينتشر البول على الحشفة.

ويُستحب له البول فى أرض دَمِثة رِخوة، وعلى ترابٍ مَهِيل، ويُكره له أن يبول مستقبل الريح، أو على أرض صلبة، كيلا يتضح البول عليه. وقد شبه فقهاء المدينة الذَّكَر بالضرع. وقال بعضهم: إنه لا يزال يخرج منه الشىء بعد الشىء ما دمت تمده. وقيل: إذا وقع الماء على الذكر انقطع البول.

وقد كان أخفهم استبراء، وأقلهم استعمالاً للماء فى الطهور، أفقههم عندهم. وقد يكون ما يظهر من التداوة بعد غسل الذكر بالماء أن ذلك من مرجع الماء، يتردد فى الإحليل لضيق المسلك، وتلاحم انضمامه عليه، فإذا خَشِى الوسواس فلينضح فرجه بعد طهوره، وهو أن يأخذ كفًا من ماءٍ فليرشه عليه. وفى خبر أن النبى ﷺ فعله. ويُكره مسُّ الذكر باليمين.

ويخرج من الذكر خمسة أشياء: البول، والمذى، والوَدْى وهو لُزُوجةٌ تعقب البول إذا طال حبسه، والريح، والمنىُّ. ثم كلها توجب الوضوء إلاّ المنى، وهو الماء الدافق الذى يفتر عنه الذكر، وتنقطع الشهوة، ومنه يُخلق الإنسان، فإنه يوجب الغسل، وما خرج من الذكر من غير ذلك من دُودٍ أو حصى ففيه الوضوء، وقد يخفى الريح، فلذلك يُستحب الوضوء عند كل صلاة، وهو من المرأة أظهر.

• ذكر شرائض الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: «مَن توضأ كما أُمر ـ وفى لفظ: من توضأ فأسبغ الوضوء ـ وصلّى ركعتين لم يحدِّث فيهما نفسه بشىء من الدنيا، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وفى لفظ آخر: «ولم يَسْهَ فيهما غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

وقال رسول الله ﷺ: «ألاَ أنبئكم بما يكفِّر الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء فى المكاره، ونقل الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».

وتوضأ ﷺ مرة مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلاّ به، ثم توضأ مرتين مرتين فقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثًا ثلاثًا فقال: هذا وضوئى ووضوء الأنبياء قبلى، ووضوء أبى إبراهيم عليه السلام».

• ذكر فرائض الطهارة:

وهى ثمانية: طهارة الإناء، ثم الماء الطاهر، والنية، والترتيب على نَسَق الكتاب، وغسل الأعضاء الثلاثة المأمور بها، ومسح الرأس، ولا ينفض يديه بالماء عند غسل وجهه وذراعيه فإن ذلك يكون مسحًا، ولا يلطم وجهه بالماء لطمًا فإنه مكروه، ولكن ليحمل الماء بيديه معًا إلى وجهه، ثم ليَسُنَّه عليه سنًا، ويغسل وجهه غسلاً من أصول شعر رأسه إلى ما ظَهَر من لحيته وعلى ما استرسل منها، وليُدخل البياض الذى بين أُذنه ولِحيته فى غسل وجهه، وليُدخل مرفقيه فى غسل ذراعيه، وهذا فرض. وينبغى أن يقطِّر الماء من وجهه وذراعيه قطرًا، وكيفية مسح الرأس أن يمسحه ببلل ماء جديد، يبتدئ بمقدم رأسه، ثم يمد يده إلى مؤخره، ثم يردها إلى يافوخِهِ هذه مرة، وليمسح رأسه أجمع. وهذه الأربعة الأعضاء هى المنصوص عليها.

فأما ذكر الواو فى الترتيب، فإنى سمعت بعض فقهاء العرب من أهل اللغة بمكة يقول: إن الواو، وإن كانت للجمع، فلا تقتضى الترتيب فى الظاهر، فإنه إذا لم يرد به الجمع بين شيئين، واستحال أن يجمع بها بين اثنين معًا، فإنها تقوم حينئذ مقام ثُمَّ، وتكون للترتيب لا غير.

• ذكر سنن الوضوء:

وهى عشرة: التسمية، وغسل الكفين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار؛ وهو إخراج الماء من الأنف، وتخليلُ اللحية، ومسح الأذنين، وغسل كلِّ عضو ثلاثًا ثلاثًا منها مسح الرأس، وأن يبدأ بالميامن، وتخليل أصابع القدمين.

• ذكر فضائل الطهارة، وما يقال عند غسل كل عضو من الأذكار:

أول ذلك أن يتوضأ قاعدًا مستورَ العورة، وأن لا يكون الماءُ مُشمسًا، وقد كُرِه ذلك. وقيل: إنّ كراهيته فى أرض الحجار خاصةً، وإسباغ الوضوء سيما فى الشتاء، فإنه من عزائم الدين. وقال بعض السلف: وضوءُ المؤمن فى الشتاء بالماء البارد يعدل عبادة الرهبان كلها.

وأن لا يعتدى فى الطهور، فقد نُهى عن ذلك، وهو أن يغسل كلّ عضو فوق الثلاث.

والوضوء على الوضوء نُور، وهو أن يتوضأ لكل صلاة عن غير حَدَث، فإن ذلك مستحب إذا أمكن، وله بكل وضوء عشر حسنات، ويجزيه أن يصلى الخمس بوضوء واحد. فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ. والوضوء على حَدَثه قربةٌ إلى الله تعالى، إذا نوى به العبدُ ذلك من غير أن يصلى به. وفى الخبر: «إذا توضأ العبد خرجت ذنوبه من جميع أعضائه»، وتكون الصلاة نافلة.

ويستحب أن يتوضأ العبد كلّما بال ما لم يشق ذلك عليه، وأن يصلى ركعتين كلما توضأ. ثم أن لا يتكلم فى الوضوء إلاّ بذكر الله تعالى. وأن يقول عند غسل كلِّ عضو ما يستحب من الدعاء. فيقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهِّر قلبى من النفاق، وحصِّن فرجى من الفواحش. ويقول عند التسمية: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ويقول عند غسل يديه: اللهم إنى أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشُؤم والهلكة. ويقول عند المضمضة: اللهم أعنِّى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك. ويقول عند الاستنشاق: اللهم صل على محمد، وأوجد لى رائحة الجنة، وأنت عنى راضٍ. ويقول عند الاستنثار: اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار، ومن سواء الدار. ويقول عند غسل وجهه: اللهم بيِّض وجهى يوم تبيض فيه وجوه أوليائك، ولا تسوِّد وجهى يوم تسودُّ فيه وجوه أعدائك. وعند غسل يمينه: اللهم آتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابًا يسيرًا. وعند غسل الشمال: اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى. وعند مسح الرأس: اللهم غَشِّنى برحمتك، وأنزل علىَّ من بركاتك، وأظلَّنى تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك. ويقول عند مسح الأذنين: اللهم اجعلنى ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار. ثم يمسح عنقه فيقول: اللهم فك رقبتى من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. ويقول عند غَسل قَدَمِه اليمنى: اللهم ثبِّت قدمى على

الصراط مع أقدام المؤمنين. ويقول عند غسل اليسرى: اللهم إنى أعوذ بك أن تزلَّ قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين[١].

وأن يبتدئ بغسل الذراعين من أصابع الكفين ويقطع من المرفقين كل غسلة، وأن يرفع فى غسل الذراعين إلى أنصاف العضدين، وأن يبتدئ بغسل القدمين من الأصابع، ويخللهما فى الميامن، ويقطع غسلهما من الكعبين، ويرفع فى غسل الرجلين إلى أنصاف الساقين، ويمين أصابع اليد اليمنى خِنصرها، ويمين اليد اليسرى إبهامها.

وإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عملتُ سُوءًا وظَلَمتُ نفسى، أستغفرك وأتوب إليك، فاغفر لى، وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلنى من التوابين، واجعلنى من المتطهرين، واجعلنى شكورًا، واجعلنى أذكرك كثيرًا، وأسبِّحك بكرة وأصيلاً.

هذا جميع ما روى من القول بعد الفراغ من الوضوء بآثار متفرقة جمعناها. يقال إن من قال هذا بعد فراغه من الوضوء خُتم على وضوئه بخاتم، ورُفع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله ويقدسه، ويُكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وأكره الوضوء فى إناء صُفر. سمعتُ أن العبد إذا توضأ احتوشته الشياطين، توسوس إليه، فإذا ذكر الله خنست عنه، وحضرته الملائكة، فإن كان وضوؤه فى إناء صُفر أو نحاس لم تحضره الملائكة.

وروى عن ابن عمر وأبى هريرة كراهة ذلك. وقال بعضهم: سألنى شُعبة أن أخرج له وَضُوءًا، فأخرجته فى إناء صُفر فلم يتوضأ به، وقال: حدثنى عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أنه كره الوضوء فى إناء صُفر.

وتوضأ رسول الله ﷺ من رَكوة، ومن أداوة، ومن مهراس حجر، وقد روينا

(١) هذه الأدعية التى ذكرها عند غسل الأعضاء لم ترد فى السنّة.

فى حديث زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ توضأ واغتسل ـ فى حديث آخر ـ من مِخْضب لها، وهو نحاس، وهذه رخصة.

• صفة الغسل من الجنابة:

يضع الإناء عن يمينه، ثم يسمى الله تعالى، ويفرغ الماء على يديه ثلاثًا قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ذَكَره ويستنجى، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كاملاً إلا غسل قدميه، ثم يُدخل يديه فى الإناء بما حملتا من الماء فيصب على شِقه الأيمن ثلاثًا ظهرًا وبطنًا إلى فخذه وساقه، ثم يغسل شِقّه الأيسر كذلك ثلاثًا ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه، ويدلّك ما أقبلَ من جسده وما أدبر بيديه معًا، ثم يدخل يديه بما حملتا من الماء فيفيض على رأسه ثلاثًا، ويخلل شعر رأسه بأصابعه، ويبل الشعر، وينقّى البَشَرة، ثم يتنحّى من موضعه قليلاً فيغسل قدميه، فإن فَضَل من الإناء ماء أفاضه على سائر جسده، وأمرَّ يديه على ما أدركتا من بدنه؛ فإن قدّم غُسل رجليه فأدخلهما فى أول وضوئه، فلا بأس، ولا وضوء عليه بعد الغسل.

وليتق أن يمس ذَكَره فى تضاعيف ذلك بيديه، فإن مسّ ذكره فليُعد وضوءه، وإن نسى المضمضة والاستنشاق فى غُسل الجنابة حتى صلَّى، أحببت أن يتمضمض ويستنشق ويعيد الصلاة، وإن نسيهما فى الوضوء فلا إعادة عليه، وكيفما أتى بغُسل جسده من الجنابة فجائز بعد أن يعم جميع بدنه غسلاً. ومن لم يتوضأ قبل الغسل، أحببت له أن يتوضأ بعده، ومن انغمس فى نهر أجزأه عن الغسل، وأُحب أن يتوضأ. وفَرض غسل الميت كغسل الجنابة.

* * *

كتاب الصلاة

● ذكر فرائض الصلاة قبل الدخول فيها:

وهى سبع: أول ذلك طهارة الجسد، وطهارة الثوب، وطهارة البقعة، وستر العورة وهى من السُّرة إلى الركبة، واستقبال القبلة، وإصابة الوقت، والقيامُ إلاّ من عُذر.

وفرائض الصلاة فى صلبها اثنتا عشر خصلة، رُوينا عن رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة». وروى عنه ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم».

فأول ذلك: النية، وتكبيرة الإحرام بلفظ التكبير.

وليس للعرب فى لفظ التكبير - بمعنى الإكبار - إلا وزن أفعل والأفعل، فيقولون: الله أكبر، والله الأكبر، وليس يقولون: الله كبير، وهم يريدون معنى أكبر مما سواه، إنما يقولون كبير بمعنى عظيم، لأن هذه لفظة أعجمية عُرِّبت. وتقول العرب: الله كبار، وليس بمعنى أكبر إنما هو بمعنى كبير، والتفخيم للتعظيم.

ثم يقرأ سورة الحمد؛ أولها بسم الله الرحمن الرحيم، والركوع، ثم الطمأنينة فى الركوع، والاعتدال قائمًا، والسجود، ثم الطمأنينة فى السجود، والجلسة بين السجدتين، والتشهد الأخير، والصلاة على محمد ﷺ، والتسليم الأول.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود». وروى عنه ﷺ: «لا تجزئ صلاةٌ لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود». ورأى ﷺ رجلاً يصلى لا يقيم ظهره فى ركوعه وسجوده. فقال له: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصل». ثم رآه لا يطمئن فى الركوع والسجود، فأمر أيضًا بإعادة الصلاة، ثم علّمه الطمأنينة بينهما، والقيام فيهما، فقال: «حتى تطمئن مفاصلك وتسترخى».

ورأى حذيفة وابن مسعود رضى الله عنهما رجلاً يصلى لا يتم ركوعه وسجوده

فقالا: لو مات هذا لمات على غير فطرة أبى القاسم ﷺ. وفى حديث أحدهما: منذ كم تصلى هذه الصلاة؟ فقال: منذ أربعين سنة. فقال: ما صليت منذ أربعين سنة.

وعن كعب الأحبار: قُسِّمت الصلاة ثلاثة أثلاث: ثُلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود، فمن نقص أحدها لم يُقبل منه سائرها.

ويقال: من لم تُقبل صلاته رُدَّت أعماله كلّها عليه.

• ذكر سنن الصلاة:

وهى اثنتا عشرة سُنّة: رفع اليدين بتكبيرة الإحرام، وصورة الرفع أن يكون كفّاه مع منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه، فيكون بهذا الوصف من الرفع مُواطئًا للأخبار الثلاثة المروية عن النبى ﷺ، أنه كان يرفع يديه إلى منكبيه، وأنه كان يرفعهما إلى شحمة أُذنيه، وأنه رفع إلى فُروع أذنيه؛ يعنى أعاليهما.

ولفظُ التكبير أن يضمَّ الهاء من الاسم، بتخفيف الضمة من غير بلوغ واو، ويهمز الألف من «أكبر»، ولا يُدخل بين الباء والراء ألفًا، ويجزم الراء، لا يجوز غير هذا، فيقول: الله أكبر.

ثم لا يرفع يديه إذا كبَّر إلى قدامٍ دفعًا، ولا يردهما إلى خلف منكبيه، ولا ينفضهما إذا فرغ من التكبير عن يمين وشمال نفضًا، ولكن يلصق كفيه بمنكبيه، وتكون أصابعه تلقاء أذنيه، ثم يكبّر ويرسلهما إرسالاً خفيفًا رفيقًا، ويكون إرسالُه يديه مع آخر التكبير، لا يرسلهما قبل انقضاء التكبير، ولا يوقفهما بعد الفراغ من التكبير.

ثم يستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال، روينا عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا كبَّر أرسل يديه، فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى، وليقبض على رَنْد كفِّه الشمال، وليجعلهما تحت صدره، ثم التوجه فيقول: وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وأما أنا من المشركين. ثم يقول: إن

صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

فقد روى جميع ذلك فى روايات مختلفة، وجميعه حسن، إلا أن يكون خلف الإمام ولا يكون للإمام سكتتان، فلا يمكنه أن يأتى بهذا التوجه كله مع قراءة الحمد، ولا يشتغلن حينئذ إلا بقراءة الحمد، يغتنم قراءتها فى سكوت الإمام. واحذر أن تقرأ فى قراءة الإمام، أو تركع أو تسجد أو ترفع رأسك قبله.

ثم الاستعاذة، ثم قراءة سورة من القرآن، أو ثلاث آيات من سورة بعد الحمد. والتأمين بعد قراءة الحمد سُنّة حسنة، فعله رسول الله ﷺ، ثم أمر به.

ثم رَفْعُ اليدين بالتكبير للركوع أيضًا سنّة، ثم التسبيح للركوع. وإذا أردت عشرًا أو سبعًا، ولا أقل من ثلاث. وإنما قيل: إنّ الثلاث أدنى الكمال، لأن الكمال عشرة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]. ولتكن الثلاث بعد أن يضع يديه على ركبتيه وقبل أن يرفعهما؛ لأنه إذا لم يتحفظ فى ذلك ويتمهل فيه حصل من التسبيح واحدة بعد الرُّكوع، وتكون الأولى والأخرى فى الانحطاط والرفع، وهذا مكروه.

وصورة الركوع: أن يفرِّج بين أصابعه فيملأ بها ركبتيه، ويجافى عَضُديه عن جنبيه، ولا يرفع رأسه ولا يخفضه، وليمدّ عنقه مع ظهره مدًّا فيكون ظهرُه ورأسه سواء، ولا يكون مَخفُوضًا إلى أسفل ولا مقبوًّا إلى فوق.

ثم رفع اليدين بقول «سمع الله لمن حمده» سُنّة، ويقول: اللهم ربنا لك الحمد ملءَ السموات والأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيءٍ بعد.

ثم التسبيح فى السجود؛ إن شاء عشرًا أو سبعًا، وأدناه ثلاث، ولتكن الثلاث بعد حصول جبهته على الأرض وقبل رفعه إياها، وإلاّ كانت واحدة؛ تذهب الأولى فى حال وضع الوجه، والأخرى فى حال رفع الرأس، فتحصل تسبيحة واحدة فى كل سجدة، وهذا غير مستحب أن ينقص عن ثلاث. وقال أنس بن

مالك: ما رأيت أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من إمامكم هذا، يعني عمر بن عبد العزيز، قال: فكنا نُسبِّح وراءه في الركوع والسجود عشراً عشراً.

ويجعل رأسه بين كفيه في سجوده مضمومًا مع اليدين، مستقبلاً بهما القبلة، ويفتح عينيه في سجوده، فإنهما يسجدان إذا كانتا مفتوحتين، ويجافي عَضُديه عن جنبيه، ويمدّ ظهره، ويرفع بطنه عن فخذيه، ويستحب أن يباشر الأرض بكفيه، فإنهما يسجدان مع الوجه.

ثم التكبير للسجود والرفع بين السجدتين، وللقيام بعد السجود من غير رفع يديه، ثم يقول: «رب اغفر لي وارحمني» ثلاثًا، روى ذلك عن ابن عمر.

وإن قال: «رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، فإنك أنت الأعز الأكرم» فجائز، روى ذلك عن ابن مسعود.

وإن قال: «رب اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وأنعشني» فحسن، قد روى ذلك عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه.

ثم التشهد الأول، ثم السّلام، بالألف واللام وضم الميم، من السلام من غير تنوين، ومد الاسم وحزم الهاء منه، فيقول: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وليلتفت وجهه بالسلام حتى يتبين خدّاه لمن عن يمينه وشماله، ويلوي به عنقه إلى منكبيه، كذلك كان تسليمُ رسول الله ﷺ، من غير أن يحولّ جسمه عن القبلة، ولا يرفع فخذه عن الأرض.

• ذكر أحكام الصلاة في الفوت والإدراك:

ومن أدرك من صلاة رباعية ركعتين، أو الثالثة من صلاة المغرب، فإن ما أدرك هو أول صلاته، فَليَبْنِ على ذلك.

ومن أدرك مع الإمام بعض القيام افتتح سورة الحمد ولم يركع حتى يتمها، وإن رفع الإمام رأسه من الركوع قبله رفع بعده، ومن لم يدرك مع الإمام من القيام شيئًا كبّر للإحرام، ثم كبّر وركع وهي له ركعة.

وإن ركعَ الإمامُ وهو في قراءة سورة غير الحمد فليقطع حيث انتهى، وليركع

بعده. ومن أدركه فى التشهد، أو فى السجود، ابتدأ التكبير للإحرام قائمًا، ثم جلس وسجد للاتباع.

فإذا سلَّم الإمامُ قام من غير تكبير يُحدثه ثانيًا، وابتدأ بقراءة الحمد عند قيامه، ولا يعتدّ بشىءٍ مما أدرك مع الإمام إلا بالركوع، وهو أن يكون قد وضَعَ يديه على ركبتيه واطمأن قبل أن يرفع الإمام رأسه، فهذه له ركعة.

ومن دخل فى صلاةٍ مكتوبة ثم ذكر أن عليه أخرى أحببت أن يتمها، ثم يصلى التى ذكر، ثم يعيد هذه الصلاة.

ومن وافق الإمام فى صلاة العصر، ولم يكن صلى الظهر، صلى معه، ثم صلى الظهر ثم أعاد بعدها صلاة العصر. قاله بعض الصحابة، وهو أحب الوجوه إلىَّ.

ومَن تكلَّم فى صلاته ناسيًا أو سلّم من ركعتين من صلاة رباعية، فليسجد سجدتى السهو بعد التشهد، فإن كان قد خرج من المسجد وتطاول ذلك، ثم ذكر، أحببتُ أن يعيدَ الصلاة.

ومَن تكلَّم أو سلّم عامدًا، أو استدبر القبلة، أو انكشفت عورته، أو رَعَفَ فى صلاته، أو ذكر أنه نسى مسحَ رأسِهِ، أو غسل عضوٍ من أعضائه، أعاد الصلاة.

ومن فاتته جماعةٌ فتطوَّع رجلٌ قام يصلى معه، أحببت أن يكون هو المصلَّى به فرضه، ولا يخرج من الخلاف ويدخل فى فرض الجماعة، ولا أستحب أن يصلى فرضًا خلف رجل يتطوع، ولا أكره صلاة النوافل جماعةً.

ولا سجود سهو على العبد فيما جهر فيه مما يخافت، ولا فيما خافت فيما يجهر.

ومَن شكّ فى ثلاث ركعات أو اثنتين، فليجعلهما اثنتين. ومن شك فى أربع أو ثلاث حسبها ثلاثًا، يبنى أبدًا على اليقين، وهو الأقل. ثم يسجد سجدتى السهو قبل السلام، وعليه أن يتشهد ثانيًا لسجدتى السهو، وصلاته تامة.

ومَن سها عن سجدتى السهو، فإن ذكرهما قريبًا، أو قبل أن يخرج من

المسجد، فأُحِبُّ أن يسجدهما، ثم يتشهد ويسلِّم، فإن تطاول الوقت، أو كان قد خرج من المسجد، سقطتا عنه.

ومن شك فى القبلة لدخول ظُلمة، أو فَقد أدلةٍ، تحرَّى جُهده، فإن تبين له أن القبلة بخلاف ذلك، أحببتُ له أن يعيد ذلك.

وأستحبُّ سجود السهو فيما زاد بعد التسليم، وفيما نقص قبله، فإن سجدهما فى الزيادة والنقصان قبل السلام، فحَسَن كل ذلك، قد رويناه عن النبى ﷺ.

فإن لحقه وهمٌ فى الصلاة ليس بشكٍّ، أو كثُر وهمه فى الصلاة، أحببت أن يجعل سجوده أبداً بعد السلام.

ومن صلى فى حال ضرورة بنقصان طهارةٍ أو نقصان فرض من فرائض الصلاة، أحببت أن يعيدَ متى قَدِر على ذلك.

ومن صلى فى ثوب ثم رأى فيه نجاسة بعد ذلك أعاد، ما دام فى الوقت قبل أن يدخل وقت صلاة أخرى، فإن خرج جميع الوقت فلا إعادة عليه، ولو أعاد تلك الصلاة متى رأى تلك النجاسة كان أحب إلىَّ.

ومن كان عليه صلوات فرَّط فيها بإضاعة أو نقصان حدود، صلاّها ـ أحبُّ إلىَّ ـ متوالية؛ صلاة يومٍ فى وقتٍ واحد إن أمكن، أو فى أوقات متفرقة نَسَقًا. وأن يكون ذلك فى غير الأوقات المنهى فيها عن الصلاة أحب إلىَّ.

ومن علم فى صلاته أن عليه ثوبًا فيه نجاسة، أو أنه غير مستقبل القبلة، فليلق الثوبَ، وليستقبل القبلة، وليتم صلاته، وإن أعاد فهو أحب إلىَّ.

• ذكر هيئات الصلاة وآدابها:

السِّواك قبل الصلاة من فضائلها، روى فى الخبر: «صلاة بسواك تَفْضُلُ على صلاة بغير سواك سبعين ضعفًا».

وأستحب له أن يقرأ ﴿قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النّاس﴾ قبل دخوله فى الصلاة، فإنه جُنَّةٌ له من العدو، وأن يستعيذ فى كل ركعة قبل قراءة الحمد، لأنه يكون قارئًا للقرآن؛

ولأن كلَّ ركعة صلاة، وأن يضم أصابع كفيه فى التكبير، وأن يراوح بين قدميه فى القيام، لا يضمّ كعبيه ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع. فإن ذلك يُستحب.

قال بعضهم: كانوا يتفقَّدون الإمام إذا كبّر فى ضم الأصابع، وإذا قامَ فى تَفرِقَةِ الأقدام. قال: فيستدلون بذلك على فقهه، ونظر ابن مسعود إلى رجل قد ألزق كعبيه فى الصلاة، فقال: لو رَاوح بينهما كان قد أصاب السُّنَّة.

وقد يروى فى خبر: أن النبى ﷺ نهى عن الصَّفَن والصَّفَد فى الصلاة. فأمَّا الصَّفَن فرفع إحدى الرجلين، من قوله تعالى: ﴿**الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ**﴾ [ص:٣١] إذا عطف الفرس طرف سُنبكه. وأما الصفد: فهو اقترانُ القدمين معًا، ومنه قوله تعالى: ﴿**مُقَرَّنِينَ فى الأَصفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩]، واحدها: صَفَد.

وقد رأيت بعض العلماء يفرّق بين أصابعه فى التكبير، وتأوّل أن ذلك معنى الخبر أن النبى ﷺ كان إذا كبَّر نَشَرَ أصابعه نَشْرًا، وذلك محتملٌ لتوكيده بالمصدر، وهو قوله: نَشْرًا، فيصلح أن يكون قوله «نشرًا» يريد به التفرقة، وقد تسمى التفرقة: بثًّا، ونشرًا، إلا أنَّ حقيقة النشر: البسط. وقد قال الله تعالى. ﴿**وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [الغاشية ١٦]، فهذا هو التفرقة. وقال فى معنى البثّ: ﴿**كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ**﴾ [القارعه:٤]. ثم قال فى مثله: ﴿**كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ [القمر ٧]. فإذا كان النَّشْر مثل البثّ، وكان البثُّ هو التَّفرقة، كان قوله «نشرًا» بمعنى فرَّق.

إلا أن إسحاق بن راهويه سُئل عن معنى قوله: «نشرَ أصابعه فى الصلاة نشرًا» فقال: هو فتحها وضمها، أراد بذلك أن يُعلم أنه لم يكن يقبض كفّه. وهذا وجه حسن، لأن النشر ضدّ الطى فى المعنى، والقبض: طىٌّ.

ورأيت ثلاثةً من العلماء يفرِّقون أصابعهم فى التكبير، منهم: أبو الحسن؛ صاحب الصلاة فى المسجد الحرام، وكان فقيهًا. ورأيت ثلاثةً يضمون أصابعهم، منهم: أبو الحسن بن سالم، وأبو بكر الآجرى. وأحسب أن أبا زيد الفقيه كان يفرِّق فى أكثر ظنى، إذا تذكرت تكبيره.

وقول «آمين» من فضائل الصلاة. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإنه مَن وافَق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه». وكان رسول الله يرفع صوته بآمين.

وفى لفظ «آمين» لغتان: المد والقصر. والميم فيهما مخففة؛ لأنك إذا شددت الميم أحلْتَ المعنى، فيكون معناه: قاصدين، من قوله: ﴿ولا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وأن يترك إحدى يديه على الأخرى قابضًا على الزندين بين السرة والصدر، فإن ذلك من الخشوع. وقال بعض العلماء: ما أحسنه ذُلٌّ بين يَدَى عزيزٍ. وروى عن النبى ﷺ أنه من سنن المرسلين.

وفسّر عليٌّ عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] قال: وضع اليمين على الشّمال، وهذا موضع علم عليٍّ رضى الله تعالى عنه، ولطيف معرفته؛ لأن تحت الصدر عرقًا يقال له: الناحر، لا يعلمه إلا العلماء، فاشتق على رضى الله عنه قوله «وانحر» من لفظ الناحر، أى ضع يدك على الناحر، وهو هذا العرق. كما يقال: ادمغ؛ أى أصب الدِّماغ. ولم يحمله على نحر البدن؛ لأنه ذكر فى الصلاة.

ومن الناس من يظن اشتقاقه من النحر، والنحر هو تحت الحلقوم عند مُلتقى التراقى، واليد لا توضع هنالك، إلاّ من قال من أهل اللغة فى معناه: «وانحر» أى واجه القبلة بنحرك، فهذا لعمرى وجه.

ولا يُقعِى فى الصلاة، وهو أن يجلس على قَدَميه وينصب ركبتيه. هذا مذهب أهل اللغة فى الإقعاء. أو على ركبتيه جاثيًا، وأصابع رِجليه فى الأرض. هذا مذهَب أهل الحديث.

وليجتنب السَّدَل والكفَّ. فأما السدل فهو أن يرخى أطراف ثيابه على الأرض وهو قائم. يقال: سدل وسَدَن بمعنى واحد، وقد تُبدل اللام نونًا لقرب المخرجين، إذا أرسل ثيابه. ومنه قيل: سَدَنَةَ الكعبة، أحدهم: سادن، وهم قُوَّامها الذين

يُسبلون عليها كسوتها. وسَدَانة الكعبة: ثيابها المسبلة. وهذا قول أهل اللغة ومذهب أهل الحديث فى السَّدَل: أن يلتحف بثوبه، ويُدخل يديه من داخلٍ، فيركع ويسجد كذلك. ولأن هذا فعل اليهود فى صلاتهم فنُهوا عن التشبّه بهم. والقميصُ فى معناه، ولا يركع ويسجد ويداه فى بدن القميص، إلا أن يكون واسعًا فلا بأس أن يركع ويداه من داخل القميص، أو يسجد وإحدى يديه فى بدن القميص إذا اتّسع، فأما أن يُدخل يديه فى جسد القميص فى السجود فمكروه.

وقد قال بعض الفقهاء فى السّدَل قولاً ثالثًا، قال: هو أن يضع وسط إزاره على رأسه، ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه. وهذا قول بعض المتأخرين وليس بشىء عندى. والأوّلان أعجب إلىَّ، وهما مذهب القدماء.

وأما الكفّ فقد نُهى عنه فى الصلاة أيضًا، وهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وأكره أن يأتزر فوق القميص فإنه من الكف.

وقد روى عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه كراهية ذلك. وروينا عن بعض أولاد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرخصةَ فى ذلك أنه صلى ﷺ بأصحابه محتزمًا بعمامته فوق القميص. وقد يكون الكف فى شعر الرأس، فلا يصلين وهو عاقصٌ شعره. وفى الحديث: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكُفَّ شعرًا ولا ثوبًا».

ونهى رسول الله ﷺ عن الاختصار فى الصّلاة، وعن الصلب. فأما الاختصار فأن يضع يده على خاصرته، وأما الصلب فأن يضع يديه جميعًا على خصريه ويجافى بين عضديه فى القيام.

ولتقع ركبتاه على الأرض قبل يديه، ويداه قبل وجهه. وأن يسجد على جبهته وأنفه، فإنهما عضو واحد. ولينهض على صدور قدميه، وإن ضعف فليعتمد على الأرض بيديه.

وأن لا يلتفت فى صلاته يمينًا وشمالاً، ولا يلحظ عن يمين وشمال، فإن لحظ

فهو أيسر، وليرم ببصره إلى موضع سجوده، فإن لم يفعل فليقابل بوجهه تلقاءَ القبلة، ولا يعبث بشىء من بدنه فى الصلاة. رُوى أن سعيد بن المسيب نظر إلى رجلٍ يعبث بلحيته فى صلاته، فقال: لو خَشَع قلبُ هذا لخشعت جوارحه. وقد رويناه عن رسول الله ﷺ من طريق.

ونُهى عن المواصلة فى الصلاة، وهى فى خمس: اثنان على الإمام: أن لا يصل قراءَتَه بتكبيرة الإحرام، ولا يصل ركوعه بقراءته. واثنان على المأموم: أن لا يصلَ تكبيرةَ الإحرام بتكبير الإمام، ولا تسليمه بتسليمه. وواحدة بينهما: أن لا يصل تسليمَ الفرض بتسليم التطوع، وليفصل بينهما.

وقد قيل: التسليمُ حزم والتكبير جزم[1]. وقد جاء فى الخبر: «سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان: الرّعاف، والنُّعاس، والوَسْوسَة، والتثاؤب، والحِكاك، والالتفات، والعبثُ بالشّىء». وزاد بعضهم: والسّهو، والشّك. وقال بعض السلف: أربعة أشياء فى الصلاة من الجفاء: الالتفات، ومسح الوجه، وتسوية الحصى، وأن يصلى بطريق من يمر بين يديه. وزاد بعضهم: وأن يصلى فى الصف الثانى وفى الصف الأول فرجة.

وقد نُهى عن صلاة الحاقن، والحاقِب، والحازِق. فالحاقن من البول، والحاقب من وجود الغائط، والحازق صاحب الخُف الضيق. فلا يصلى من كُنَّ به هذه الثلاث؛ لأنها تشغل القلب. وأكره صلاة الغضبان، والمهتمّ بأمر، ومن عرضت له حاجة، حتى يُسوَّى عن قلوبهم ذلك، ويطمئن القلب، ويتفرّغوا للصلاة. ومن شغل قلبَه حضورُ الطعام، وكانت نفسه تائقة إليه، فليقدّم الأكل؛ لقوله ﷺ: «إذا حضر العَشاء وأُقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء». إلا أن يضيق الوقت، أو يكون ساكن القلب.

وفى الخبر: «لا يدخلنّ أحدكم الصلاة وهو مُقطِّب[2]، ولا يصلين أحدكم وهو

(١) فى (م) معكوسة: «التسليم جزم والتكبير حزم».
(٢) مقطب: أى مقطب جبينه.

غضبان». وكان الحسن يقول: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع.

• ذكر فضائل الصلاة وآدابها وما يزكو بها أهلها، ووصف صلاة الخاشعين:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه:١٤]. وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. قيل: سكارى من حب الدنيا. وقيل: من الاهتمام بها. وقل جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣].

وقال النبى ﷺ: «من صلى ركعتين لم يحدِّث نفسه فيهما بشىءٍ من الدنيا غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقال ﷺ: «إنما الصلاة تَمسْكُن، وتواضع، وتضرُّع وتباؤس، وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم. فمن لم يفعل فهى خداج» أى ناقصة.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى الكتب السالفة أنه قال: ليس كل مصلٍّ أتقبَّل صلاته، إنما أتقبل صلاة من تواضع لِعَظَمتى، ولم يتكبر علىَّ، وأطعمَ الفقيرَ الجائع لوجهى.

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من عن يمينك، ولا من عن شمالك، من حسن القيام بين يدى القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وكذلك فسّروا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. وقال سعيد بن جبير: ما عرفتُ من عن يمينى ولا عن شمالى فى الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من عن يمينه وعن شماله.

وروينا عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته. وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدًا فلا صلاة له.

وقد أسنده إسماعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحارث وغيره وعن الثورى أيضًا:

من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساطٍ فى صلاته، فصلاته باطلة. وقال بشر: يعنى بذلك أنه عمل فى الصلاة.

ومن الدّوام فى الصلاة السكون فيها، وعلى ذلك فُسِّر قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُم عَلَى صَلَاتِهِم دَائِمُونَ**﴾ [المعارج:٢٣]. قيل: هو السكون والطمأنينة فى الصلاة، من قولك: ماء دائمٌ إذا سكن. وقال بعض الصحابة: يُحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم فى الصلاة، من الطمأنينة والهُدوء، ومن وجود النّعيم بها واللذة. ثم إصغاءُ القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل فى القراءة، والتدبر لمعانى الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم فى الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة فى الطلب للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع فى الكتاب.

وإن مرّ بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مرّ بتسبيح وتعظيم وحمد سبَّح وعظَّم وحَمِد، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسرَّه فى قلبه ورفع به همَّه نابه قصدُه عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة:١٢١]. هكذا كان وصفهم فى التلاوة.

وينبغى أن يكون قلبه بوصف كل ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنًى من معانى المناجاة، فإذا قال: «الله أكبر» لا يكون فى قلبه أكبر من الله تعالى إن عقل ما يقول؛ لأن معنى قوله «الله أكبر»: أى أكبر مما سواه، ولا يقال أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال: هذا كبير، وهذا أكبر. فإن كان همّه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر فى قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه فى قوله تعالى: ﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، ويواطئ لسانه قلبه فى مشاهدة الأكبر فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدّم العين على اللسان فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ**﴾ [البلد:٨ ـ ٩]. فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققًا لمقاله بالوصف، حتى يكون عاملاً بما يقول فى الحال، فقد أخذ عليه

ذلك لما أمر به حجةً عليه وتنبيهًا له، ولا يكون بقوله: «الله أكبر» حاكيًا ذلك عن قول غيره، ولا مخبرًا به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجبٌ، لأن الإيمان قول وعمل فى كل شىء. فإذا قلت: «الله أكبر»، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر فى قلبك من كل شىء، وهو من رعاية العهد، لتدخل تحت الثناء والمدح فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج:٣٢]. فالعهد: ما أعطيت بلسانك، والرعاية: الوفاء بالقلب ليستحق الأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠].

ومن كان فى قلبه الملك الصغير الفانى أكبر من الملك الأكبر فما عمل بقوله تعالى: «الله أكبر» وليس هذا حقيقةَ الإيمان؛ لأنه لم يأت بعملٍ وقول، وإنما جاء بالقول وهذا قائمٌ بنفس مشاهد للدنيا، فهو عند نفسه، فلذلك كانت قرة عينه نفسه، ولو كانت عند ربه كانت مشاهدته الآخرة، وكانت قرةُ عينه الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُم يَنْفَدُ﴾ يعنى الدنيا ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل ٩٦] يعنى الآخرة.

وقد قال ﷺ: «وجُعلت قرةُ عينى فى الصلاة»؛ لأنه كان عند ربه فجعل قرّة عينه به. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فالمذكور أكبر وأكبر. وقد أخبر تعالى أن الصلاة أُريد بها الذكر فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه:١٤]. وروى معنى ذلك عن رسول الله ﷺ. وإنّما فُرضت الصلاة، وأُمر بالحج والطواف، وأُشعرت المناسك؛ لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور ـ الذى هو المقصود والمبتغى ـ عظمةٌ ولا هيبة فما قيمة ذكرك؟ وقال رسول الله ﷺ لأنس بن مالك إذا صلى صلاة: «فصلِّ صلاة مودِّع»، أى مودِّع لنفسه، مودِّع لهواه، مودِّع لعمره، سائرٌ إلى مولاه. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]. وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وقال النبى ﷺ: «جُعلت قرة عينى فى الصلاة». وكان يرى الأكبر فتقرّ عينه به. وقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدَد من الله إلا بعدًا». كما قال: «من لم يترك قولَ الزور والخيانةَ فليس لله تعالى حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه». فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفةُ من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوءُ لها قبلَ دخول وقتها لئلا يشغله عن أول وقت غيرها.

وينبغى أن يكون قلبه فى همه، وهمه مع ربه، وربه فى قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته. فإن كلَّ كلمة عن معنى اسم، أو وصفٍ، أو خُلقٍ، أو حُكم، أو إرادةٍ، أو فعلٍ؛ لأن الكلِمَ يُنبئ عن معانى الأوصاف، ويدلّ على الموصوف.

وكلُّ كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات للعارف، من كل جهة مقام ومشاهدات. أولُ الجهاتِ: الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها. فهذه المقامات العشر هى مقامات اليقين؛ لأن الكلمة هى حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية فى كلِّ كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلام المحبوب حياة القلوب، لا يُنذَر به إلا حى، ولا يحيا به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۞ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]. وقال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا يشهد هذه العشرَ مُشاهدات إلاّ مَن نُقل فى العشر مقامات المذكورة فى سورة الأحزاب؛ أولها مقام المسلمين، وآخرها مقام الذّاكرين. وبعد مقام الذّكر هذه المشاهدات العشر، فعندها لا يملّ المناجاة لوجودِ المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنوِّ العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب. هنالك يندرج طول القيام فى التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة

فى الصلاة فلا يشهدها، فيكون من ورائه القبلة وهو أمامها. كذلك القيام يحمله، وهو مع حامله.

حُدِّثت أن الموقنَ إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفًا منه؛ لأنه يتأهب للدخول على الملك. فإذا كبّر حُجب عنه إبليس، وضُرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه. فإذا قال: الله أكبر، اطّلع الملك فى قلبه، فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت الله تعالى فى قلبك كما تقول. قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فيُكشف له بذلك النور ملكوتُ السموات والأرض، ويُكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافلَ الجاهلَ إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين، كما يحتوش الذباب على نقطة العسل. وإذا كبّر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كلّ شىء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول له: كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول. قال: فيثور فى قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابًا لقلبه، قال. فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه، ويزين له، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وقد جاء فى الخبر: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوبِ بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه رأى فى القبلة نُخامة، فغضب غضبًا شديدًا، ثم حكّها بعُرجون كان فى يده، وقال: ائتونى بعبيرٍ، فلطّخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: «أيكم يحب أن يُبزَق فى وجهه؟» فقلنا: لا أينا. قال: «فإن أحدَكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز رجل بينه وبين القبلة ـ وفى لفظ آخر: واجهه الله تعالى ـ فلا يبزقن أحدُكم تِلقاءَ وَجهِه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى، فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه، وليقل به هكذا، ودلك بعضه ببعض».

وقد روى: «إذا قام العبد فى صلاته فقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى. فإذا سها فى صلاته أو حدّث نفسه بشىءٍ، يقول الله

تعالى لملائكته: أرسلوا الحجاب بينى وبين عبدى، فإذا التفت يقول الله تعالى: عبدى، إلى من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه».

ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لربّ العالمين، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدى الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلالُ الحاضر، ويستولى عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب.

فإذا تلا وقَف همُّه مع المتكلم ماذا أراد، واشتغل قلبُه بالفهم عنه والاستنباط منه.

فإذا ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده.

فإن رفع شهد الحمدَ للمحمود، فوقفَ مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا، لأنه حقيقة الحمد.

وإن سجد سما قلبه فى العلوِّ فقرُب من الأعلى بقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاث مقامات؛ منهم مَن إذا سجَد كُوشف بالجبروت الأعلى، فسجد أمام العرش مواجهًا للوجه، ومجاورًا للملأ الأعلى تلقاء الأفق الأعلى، فيعلو إلى القريب، ويدنو من الحبيب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين.

ومنهم من إذا سجد كُوشف بملكوت العزّة، فيسجد على الثّرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجلّ، فينكسر قلبه ويخبت، تواضعًا وذُلاً للعزيز الأعلى، وهذا مقام الخائفين من العابدين.

ومنهم من إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السموات والأرض، فآب بظرائف الفوائد، وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

وهناك قسم رابع لا يُذكر بشيء ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجولُ همّهم في أعطية الملك وأنصبة المماليك، فهم محجوبون بالهِمم الدنيَّة عن الشهادة العليَّة، مأسورون بالهوى عن السياحة إلى الأعلى.

فإن دعا هذا المصلّي نظر إلى المدعوّ، فكان هو المرجوّ، فأخذ في التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسي حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى وعن مسألته بحسن الثناء. وإن استغفر هذا الداعي تفكّر في أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتَذكّر ما سلفَ من الذنوب، فعمل في تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجلّد عقدَ الاستقامة، فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة. ففي مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار: أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمّنون على دعائه، وأن للمصلي لَيُنثر عليه البرُّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وينادِيه مناد: لو علم المناجي من مناجي ما انفتل، وأن أبواب السماء تُفتح للمصلين، وأن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين. وفي التوراة مكتوب: يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدَيَّ مصليًا باكيًا، فأنا الله تعالى الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيتَ نوري. قال: وكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء وتلك الفتوح التي يجدها المصلّي في قلبه من نورّ الرب تبارك وتعالى من القلب، وقال رجل للنبي ﷺ: ادع الله تعالى أن يرزقني مرافقتك في الجنة. فقال: «أعنّي بكثرة السجود». وروينا عن النبي ﷺ: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبّ إليه من الصلاة». ولو كان شيء أحبَّ إليه من الصلاة لتعبَّد به ملائكتُه؛ منهم راكعٌ، وساجد، وقائم، وقاعد. أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجلّ في أرضه. وقال آخر: المصلون خدّام الله عز وجل على بساطه. إن المصلين من الملائكة يُسمّون في السموات خُدّام الرحمن ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة.

ويقال: إنّ المؤمنَ إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوفٍ من الملائكة؛ كل صف منهم عشرة آلاف، ويباهي الله تعالى به مائة ألفِ ملَك؛ وذلك أن العبد قد

جمع فيه أركان الصلاة الأربعة؛ من القيام، والقعود، والركوع، والسجود، وفرّق ذلك على أربعين ألف ملك. والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والساجدون. ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة من: التلاوة، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبى ﷺ. وفرّق ذلك على ستين ألف ملك؛ لأن كل صفٍّ من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة. فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكار فى ركعتين عجبت منه وباهاهم الله تعالى به؛ لأنه قد فرَّق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فُضِّل المؤمن على الملائكة. وكذلك فُضِّل الموقن أيضًا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك بالتنقيل فى المقامات، بأن جُمعت فيه ورُفع منها، والملائكة لا يُنقلون بل كلّ ملك موقوفٌ فى مقام معلوم لا يُنقل عنه إلى غيره مثل: الشكر، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنين، والخشية، والمحبة، بل كلُّ ملك له مزيد وعلوٌّ من المقام الواحد على قدر قواه. وجُمع ذلك كله فى قلب الموقن.

قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ فى صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ ٣]. فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] فختم بها نعوتهم. وقال فى نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الجزوعين من المصائب والفقر، المانعين للمال والخير: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢ ـ ٢٣]. ثم نسق النعوت وقال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فلولا أنها أحب الأعمال إليه ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولَمَا وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع: هو انكسار القلب، وإخباته، وتواضعه، وذلته، ثم لين الجانب،

وكفُّ الجوارح، وحسن سَمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة: هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات.

ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون ١٠ ـ ١١]. فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس، وهو خير المستقر والمأوى.

وقال فى أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُم فِى سَقَرٍ * قَالُوا لَم نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ﴾ [المدثر ٤٢ ـ ٤٣]

وقال توبيخًا لآخر منهم ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾ [القيامة ٣١].

ونُهى رسولُ الله ﷺ عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها، وأخبره أن فيها القرب والزلفى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ ـ ١]. ثم قال: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق ١٩].

فالمصلون بهبه من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

○ ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح ٢٩] الآية. فاختار لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة فجعلها وصفهم فى الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال لأن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل العُمّال.

وسئل رسول الله ﷺ: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لمواقيتها». وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيت الرجل حافظًا لصلاته فظُنَّ به خيرًا، وإذا رأيته مضيِّعًا لصلاته فهو لما سواها أضيع.

وكان الحسن يقول: ابن آدم، ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟ فهو على الله تعالى أهون.

وعن رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين من تركها فقد كفر». وفى حديث آخر: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة». وفى الخبر: «من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورًا وبُرهانًا يوم القيامة، ومن ضيَّعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ يَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهدًا﴾ [مريم:٨٧] قال: الصلوات الخمس.

وعن ابن مسعود وسلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى وُفِّى له، ومن طفّف فقد علمتم ما قال الله تعالى فى المطففين.

وفى الخبر: «أسوأ الناسِ سرقةً الذى يسرق من صلاته فلا يتمّ ركوعها ولا سجودها».

وفى الخبر: «إذا صلى العبد فى الملأ فأحسنَ وأساء صلاته فى الخلا فتلك استهانةٌ يستهين بها ربه عز وجل». وفى الخبر: «إذا أحسن العبد صلاته فى العلانية وأحسنها فى السرّ قال الله تعالى لملائكته: هذا عبدى حقًا».

وعن كعب وغيره: من قُبلت صلاته قُبلت أعماله كلها، ومن رُدَّت عليه صلاته رُدت عليه أعماله كلها.

ويقال: من تُقبِّلت منه الصلوات الخمس كملاً من غير تلفيق، ولا ترقيع بعضها من بعض، أو غيرها من النوافل، اطَّلع على علم الأبدال وكُتِب صدِّيقًا.

وعلامة قبول الصلوات أن تنهاه فى تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر؛ والفحشاء: الكبائر، والمنكر: ما أنكره العلماء. فمن انتهى رُفِعت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تخرَّقَتْه الأهواء فقد رُدَّت صلاته لمَّا غوى فهوى.

وقال مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم: إنى لأرى الرجل يسىء صلاته فأرحم

عياله. وقال الفضيل بن عياض: الفرائض رءوس الأموال، والنوافل الأرباح، ولا يصح رِبحٌ إلا بعد رأس المال. وكان ابن عيينة يقول: إنّما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول.

وقال على بن الحسين: من اهتمّ بالصلوات الخمس فى مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له فى الدنيا عيش. وكان عليه السلام إذا توضأ للصلاة تغير لونه واصفر وأرعد. فقيل له فى ذلك. فقال: تَدررن بين يدى من أريد أن أقف، وعلى مَن أدخل، ومن أخاطب؟

وقال بعض العارفين: للصلاة أربعُ فرائض: إجلال المقام، وإخلاص التمام، ويقين المقال، وتسليم الأمر.

وقال أبو الدرداء: خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظِلَّة لذكر الله تعالى.

وكان وكيع يقول: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يحافظ عليها، ومن تهاون بتكبيرة الإحرام فاغسل يدك منه.

وروينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، قال: تكبيرة الإحرام.

وفى حديث أبى كاهل عن رسول الله ﷺ: «من صلى أربعين يومًا الصلوات فى جماعةٍ لا يفوته منها تكبيرة الإحرام كُتب له براءتان؛ براءةٌ من النفاق، وبراءةٌ من النار».

وقال سعيد بن المسيب: منذ أربعين سنة ما فاتتنى تكبيرة الإحرام. وكان يُسمى حمامة المسجد. وقال عبد الرزاق: من عشرين سنةً ما سمعت الأذانَ إلاّ فى المسجد.

ويقال: «إنه إذا كان يوم القيامة أُمر بطبقات المصلين إلى الجنة زُمَرًا. قال: فتأتى أوّل زُمرةٍ كأنَّ وجوهم الكوكب الدرى، فتستقبلهم الملائكة فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون من أمة محمد ﷺ. فيقولون: ما كانت أعمالكم

فى الدنيا؟ فيقولون: كنّا إذا سمعنا الأذان قُمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها. فتقول الملائكة: يحقّ لكم ذلك. ثم تأتى الزمرة الثانية، فوق أولئك فى الحسن والجمال، كأن وجوهَهم الأقمار. فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها. فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك. ثم تأتى الزمرة الثالثة، فوق هؤلاء فى المنزلة والجمال كأن وجوههم الشمس الضاحية. فتقول الملائكة: أنتم أحسن وجوهًا وأعلى مقامًا فمن أنتم؟ فيقولون: نحن المصلّون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نسمع الأذان فى المسجد. فتقول الملائكة: حُق لكم ذلك».

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم: سُميت الصلاة صلاةً لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل، ومواصلة من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والمنال إلاّ لتقيٍّ. قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]. ولا يكون التقيُّ إلا خاشعًا، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليها الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. والخاشعون من المؤمنين هم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٤٧]. والخاشعون أيضًا الخائفون، والذاكرون، والصابرون، والمقيمون الصلاة. فإذا كمُلت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين. وقد قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

وكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع بن خيثم يقول: وبشر المخبتين، أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك. وفى لفظ آخر: لأحبك. يقال: إنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة لا تحسَب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى؛ لشدة غض بصره، وطول إطراقه إلى الأرض بنظره، وكان إذا دقّ الباب عليه تخرج إليه الجارية، فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقُك ذاك الأعمى قد جاءك. فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذاك الربيع. ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى

الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تُنفخ وإلى النيران تلتهب صُعِق وسقط مغشيًا عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشيًا عليه إلى الساعة التى صُعق فيها حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف.

وكان هذا يقول: ما دخلتُ فى صلاة قط فأهمَّنى فيها إلاّ ما أقول وما يقال لى.

وقد كان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين، كان إذا صلى ضربت ابنته بالدف، وتحدّث النساء بما يُردن فى البيت، ولم يكن يعقل ذلك، ولا يسمعه. وقيل له ذات يوم: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء؟ قال: نعم، بوقوفى بين يدى الله عز وجل، ومنصرفى إلى إحدى الدارين. قيل: فهل تجد شيئًا مما نجده من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف الأسنَّةُ فىَّ أحبُّ إلىَّ من أن أجد شيئًا فى الصلاة مما تجدون. وكان يقول: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا.

وقد كان مسلم بن يسار من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل فى الصلاة يقول لأهله: تحدثوا بما تريدون، وافشوا سركم، فإنى لا أستمع إليكم. وكان يقول: وما يدريكم أين قلبى. وكان يصلى ذات يوم فى مسجد البصرة، فوقعت خلفه أسطوانةٌ معقودٌ بناؤها على أربع طاقات، فتسامعَ بها أهل السوق فدخلوا المسجد، وهو يصلى كأنه وتد، وما انفتل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يُهَنِّونه، فقال: أى شىءٍ تهنونى؟ قالوا: وقعت هذه الأسطوانة العظيمة وراءَك فسلِمْت منها، قال: متى وقعت؟ قيل: وأنت تصلى، قال: ما شعرتُ بها.

وقال بعض المصلين: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت فى الصلاة خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هل تحدِّث نفسك فى الصلاة بشىء من الدنيا؟ فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها. وسئل بعضهم: هل تذكر فى صلاتك شيئًا؟ قال: وهل شىءٌ أحبُّ إلىَّ من الصلاة فأذكره فيها؟

وكان أبو الدرداء يقول: من فِقْهِ الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة، ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ.

وفى الخبر: إن عمار بن ياسر صلى صلاةً فخففها، فقيل له: خفّفت يا أبا اليقظان. فقال: هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئًا؟ قالوا: لا. قال: لأنّى بادرت سهوَ الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليصلى الصلاة لا يُكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عُشرها». وكان يقول: «إنّما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها».

وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد: أنه إجماع. فروينا عنه أنه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل. وقال الحسن: كلُّ صلاةٍ لا يحضرها قلبك فهى إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب. ويقال: إن أصحاب رسول الله ﷺ، منهم الزبير وطلحة، كانوا أخفَّ الناسِ صلاةً، فسئلوا عن ذلك فقالوا: نبادرُ بها وسوسة العدوِّ.

وروينا أنَّ عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: إنَّ الرجلَ لَيشيبُ عارضاه فى الإسلامِ، وما أكمل لله تعالى صلاةً. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتمُّ خشوعَها وتواضعَها وإقبالَه على الله تعالى فيها.

وقال الله جل ذكره، وَمَن أصدقُ من الله حَديثًا: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

وقال رسول الله ﷺ: «من تشعّبت به الهمومَ لم يبالِ اللهُ تعالى فى أى أوديتها هلك».

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِم سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] قال: هو الذى يسهُو فى صلاتِه، فلا يدرى على كم ينصرف، على شفع أم على وتر؟

وسئل الحسن عن ذلك، فقال: هو الذى يسهو عن وقتِ الصّلاة حتى يخرج وقتها. وكان يقول: أما واللهِ لو تركوها لكفروا، ولكن سَهَوا عن الوقت.

وقال بعضُ السلف فيها: هو الذى إن صلاها فى أول الوقت أو فى الجماعة لم يفرح، وإن صلاها بعد الوقت لم يَحزن. وقيل: هو الذى لا يرى تعجيلها برًا،

ولا تأخيرها إثمًا. ويقال: إن الصلوات الخمس يُلفَقُ[1] بعضُها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة. وقيل: من الناس من يصلِّى خمسينَ صلاةً فيكمل له بها خمس صلوات. وإن الله تعالى ليستوفى من العبد ما أمره به كما فَرَضَه عليه وإلاّ تَمَّمه من سائر أعمالِه النوافل، لأنه ما فرض على العبد إلا ما يطيقه بعونه، إذ لم يكلِّفه ما لا طاقةَ له به برحمته.

وروينا عن عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى: «بالفرائض نجا منِّى عبدى، وبالنوافل تقرَّب إلىَّ عبدى».

وقد جاء مثله عن نبينا ﷺ: «يقول الله تعالى: لا ينجو منِّى عبدٌ إلاّ بأداءِ ما افترضتُه عليه». وفى الخبر المفسر: «أوّل ما يُحاسَب به العبدُ الصّلاة، فإن وُجدت كاملة، وإلاّ يقول الله تعالى: انظروا هل لعبدى من نوافل؟ فيتم فرائضه من نوافله»، ثم يُعمل بسائر الفرائض كذلك، يُوفَّى كلُّ فرض من جنسهِ من النَّفل، فإذا كانت النوافل فى السّهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله فى الحساب؟

وكان ابن عباس يفسر قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣] قال: يعنى به الكافر. لأن عنده أن كلّ موضع فى القرآن يُذكر به الإنسان خاصة: أنه يعنى به الكافر.

وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] يعنى طاقتها. وقال سبحانه وتعالى مخبرًا عن المؤمنين: ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]. فى التفسير: قد فعلت.

وفى هذه المسألة اختلافٌ وشبهة، والصواب من ذلك أن الله عز وجل لا يكلّف المؤمنين خاصة ما لا طاقة لهم به، فهم مخصوصون بذلك، فضلاً من الله تعالى ونعمة، آثرهم بها على الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، وهذا مفهوم من دليل الخطاب من قوله: ﴿وَلاَ

(١) أى يضم، من لَفَقَ الثوب لَفْقًا، إذا ضم إحدى الشقتين إلى الأخرى فخاطهما.

﴿تُحَمِّلْنا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]: أن له تعالى أن يحمِّل الكافر ما لا طاقة له به عدلاً منه وحكمة. كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الانعام:١١٥]. قيل: صدقًا للمؤمنين، وعدلاً على الكافرين. قال الله تعالى مخبرًا عن أخوة يوسف: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٩١]. فهذا نصٌّ فى الإيثار لبعض خَلْقه على بعض. ثم رأيتُ تصديق ما ذكرته عن ابن عباس رواه إسماعيل عن جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الاعراف:٤٢] يعنى: إلاّ طاقتها من العمل؛ لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالاً يطيقونها، ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون. هذا نَقْلُ لفظ ابن مسعود فى تخصيص المؤمنين، كما ذكرناه آنفًا.

ويقول أيضًا فى تفصيل هذه المسألة التى للزائغين فيها تعلقٌ ابتغاءَ التأويل: إن الله تعالى كلَّف العباد ما لا يطيقونه إلاّ به؛ لافتقارهم إليه، وعدم استغنائهم عنه فى كل حركة وسكون، إذ لا مشيئة لهم دون مشيئته ولا استطاعة إلا بتوفيقه، ولا حول ولا قوة إلا به. ألم تسمع إلى قوله تعالى فى وصف الكافرين: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]؟ وقال تعالى فى مثله: ﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١]. وقال فيمن استطاع به: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨].

وروينا عن النبى ﷺ: «من صلى كما أُمر غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد يروى فى خبر: «يقول الله تعالى: ليس كل مصلٍّ أتقبَّل صلاته، إنما أتقبّل الصلاة ممن تواضع لعظمتى، وخشع قلبه لجلالى، وكفّ شهواته عن محارمى، وقطع ليله ونهاره فى ذكرى، ولم يصرّ على معصيتى، ولم يتكبَّر على خلقى، ورَحِم الضعيف، وواسى الفقير من أجلى، علىَّ أن أجعل الجهالة له حلمًا، والظلمَ له نورًا، يدعونى فألبِّيه، ويسألنى فأعطيه، ويُقسم علىَّ فأبَرَّه، أكلؤه بقوتى، وأباهى به ملائكتى، لو قُسم نوره عندى على أهل الأرض لوسعهم. مَثَله

كمَثَل الفردوس لا يتسنَّى ثمرها ولا يتغير حالها». وفى الخبر: «كم من قائم حظُّه من قيامه السهر والتعب».

ومن صلى صلاةَ وراء إمام فلم يدر ماذا قرأ، فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر للاستماع، فيخاف عليه مُجانَبة الرحمة؛ لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، وجعل علامة الحضور الإنصات. وقال سبحانه فى المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وروينا فى خبر: «إن النبى ﷺ صلَّى صلاةً فترك فى قراءته آية. فلما انفتلَ قال: ماذا قرأتُ؟ فسكت القوم. فسأل أُبيَّ بن كعب فقال: قرأت سورةَ كذا وتركت آية كذا، فما أدرى أُنسِخت أم رُفعت. فقال: أنت لها يا أُبيُّ. ثم أقبل على الآخرين فقال: ما بال أقوامٍ يحضرون صلاتَهم ويتمُّون صفوفهم، ونبيهم بين أيديهم، لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، إلا أن بنى إسرائيل كذلكم فعلوا، فأوحى الله إلى نبيهم أن قل لقومك: تُحضِرونى أبدانَكُم، وتعطونى ألسنتكم، وتُغيِّبون عنّى قلوبكم، باطلاً ما تذهبون».

وقال بعض علمائنا: إن العبدَ يسجد السجدة، عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو تُسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا. قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجدًا عند الله، وقلبه مصغ إلى هوًى، ومشاهدٌ لباطل قد استولى عليه. وهذا كما قال؛ لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الربّ تعالى.

واعلم أن طول الصلاة عليك غفلةٌ، وقصرها سهوٌ، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة ووجود الثقل بها وكِبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفَّت دلَّ على نقصان حدودها ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصَّرها. والاستقامة فى الصلاة أن لا تطول عليك؛ لوجود الحلاوة، ولذة المناجاة، وحسن الفهم، واجتماع الهمِّ، ولا تقصر عليك لتيقّظك فيها، ورعايتك حدودها، وحسن تيامك بها. وهذه مراقبة المصلين، ومشاهدة الخاشعين.

• ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة:

وما ذُكِّر به العبد فى الصلاة من الخير فليسارع إلى فعله، فذلك من أحبِّ الأشياء إلى الله تعالى، لأنه أذكره إياها فى أحبِّ المواطن إليه. وما ذُكِّر به من المكروه والممقوت إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه؛ فإنه هو الذى يُبعده من قُرب الله سبحانه وتعالى، وتذكيره إيّاه فى محل القرب توبيخًا له وتقريرًا، وقد يكون عتبًا وتنبيهًا، فَتَركُ ذلك مما يقرّب إلى الله تعالى، ويدل على حُسن الاستجابة له؛ وهو مسلكٌ طريقه إلى الله تعالى.

وما خطر به من خاطر تمنٍّ أو هوًى، أو ذكر بِهِمَّة ما يأتى أو ما قد مضى، فإن ذلك وسوسة إليه من عدوّه حسدًا له، ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كلّ ركن من أركان الصلاة، ويشغل قلبه عن الوقوف فى المناجاة، فيحجبه بما يضره عما ينفعه، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كلّ ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من: تدبر، أو تعظيم، أو حمد، أو دعاء، أو استغفار.

وإن خطر بقلبه أمر معاشه وتصريف أحواله وتدبير شأنه من المناجاة، فذلك من قِبَل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا، فأما إن خطرت هِمّةٌ محظورة، أو فكرة فى معصية مأزورة؛ فهذا هو الهلاكُ والبُعد، يكون عن وصف النفس الأمّارة باستحواذ العدو المُغوِى؛ فهو علامة الإبعاد والحجاب ودليل المقت والإبعاد والإعراض. فإذا ابتُلى فى صلاته بهذه المعانى فقد اختُبر بذلك، فعليه أن يعمل فى نفيه مع نفس بُدوِّه، ولا يُمكّنه من الظهور من قلبه فيملكه، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه، ولا يحادثه ولا يطاوله فيُخرجه من حدِّ الذِّكْر واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة، وكلُّ عملٍ محظورٍ فالهمةُ به محظورةٌ وفيه نقصٌ، وكلُّ عملٍ مباحٍ فالهمةُ به مباحةٌ وفيها فضيلة.

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلُها فليعقد النية بذلك، فإنه قد ذُكِّر به وأُريد منه، ثم ليَمْضِ فى صلاتِهِ ولا يَشْتغل بتدبيره كيف يكون؟ ومتى يكون؟ أو كيف أكون فيه؟ وعنده إذا كان، فيفوته الإقبال فى الحال بتدبير شأنه فى المآل، وهذا هو استراق من العدو عليه، وإلقاء من خُدَعه إليه، فإن جاهدَ هذا المصلى

نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوه فى قطع وَسوَسة الصَّدر، كان مجاهدًا فى سبيل الله تعالى، مقاتلاً لمن يليه من أعداء الله تعالى، وله أجران: أجر الصلاة للتقرب إلى الكريم، وأجر المصابرة والمحاربة لعدوه الرجيم.

وقد كان الأقوياء من المؤمنين، أهل العلظة على الأعداء والتمكين، إذ ابتُلوا بداخلٍ يدخل عليهم فى الصلاة من الأسباب، يُخرجهم عن المشاهدة فيها، عملُوا فى قطع ذلك الشيء وإبعاده من أصله، إذ كان سبب قطعهم وإبعادهم من قربهم، فيستخرج بإدخال ذلك عليهم إخراجَهم من الدنيا؛ وهو الزهدُ فيها، فيكون ذلك إحسانًا من الله إليهم ومزيدًا منه لهم؛ وهذا أحد ما زهد لأجله الزاهدون فى الدّنيا؛ لتصفو قلوبهم من الأسباب، فتخلص أعمالهم من الوساوس بالاكتساب.

ومن ذلك ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه نزعَ الجُبَّة التى كانت عليه فى الصلاة، لما نظر إلى عَلَمها وقال: ألهتنى هذه فى الصلاة؛ يعنى شغلتنى. ونظر إلى شراك نعله فى الصلاة، وكان جديدًا، فأمر أن يُنزع منها ويُعاد لها الشَّراكُ الخَلِقُ الذى كان عليها. وكان قد احتذى نَعلاً فأعجبه حُسنها فسَجَد وقال: تواضعت لربى كيلا يَمْقُتنى، ثم خرجَ بها فدفعها إلى أول سائل لقيه، ثم أمر عليًا أن يشترى له نعلين سَبْتِيين جَرْدَاوَين، فلبسهما.

وكان الضعفاء من المؤمنين يعملون فى نفيه وترك مساكنته ومحادثته فى الحال، لقوادح اليقين فى إيمانهم، ولسرعة التيقظ فى قلوبهم؛ لأن الآفات تدخل من مكان الهوى وتمكُّن الأعداء، ومكان الهوى وقوة العدو لطول الغفلة وعدم حلاوة الطاعة، لاتساع النفس فى الشهوات، وقوة سلطانها على الصفات، واتساع النفس وقوة صفتها لضيق القلب، وضعف اليقين، إذ لو قوى يقين العبد لانشرح صدره، ولأطفأ نورُ يقينه ظُلمةَ هواه، ولاندرجت النفس فى القلب اندراج الليل فى النهار، ولأسقط مكانُه من الشَّهادة تمكُّنَ أعدائه والعادة، ولعلم يقينًا أن ما هو فيه من الذِّكر والصلاة أنفعُ له وأحمدُ عاقبةً مما تفكّر فيه من عاجل دنياه، فيشتغل حينئذ بما هو فيه له من الذّكر عمّا هو عليه من سوء الفكر.

وليس بعد هذين المقامين حال يُنعت ولا يُمدح بشيء، وما قُدح فى قلبه من

فهم الخطاب، وتدبر معانى الكلام، والإيقاف على المقصد والمراد، فهو تعليم من الله تعالى، وتوقيف وتنبيه منه وتعريف؛ وهذا مزيد التلاوة، وعلامة الإخلاص فى المعاملة، وبركة التدبّر، ودليل القبول والشكر لحسن الخدمة، فليأخذ من ذلك ما عفا، ويغترف منه ما صفا، ولا ينتظره ولا يتمنّاه، ولا يتبعه بعد انصرافه بالفكر فى معناه، فيسترقَّ العدوُّ عليه السّمع، ويُلقى إليه الوسوسة، ويطمع فيه بالغِرَّة، ويدخل عليه من باب الأمنية؛ لأنه قد قَرَنَ الأمانى بالإضلال؛ فهى مواعيدُ الكذب للإبطال. ألم تسمع إلى ربك تعالى كيف أخبرك عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٩] ثم قال فى مثله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤]. ثم استثنى عباده المسلّطين عليه بسلطانه، الغالبين له بآياته، فلم يصل العدو إليهم؛ لمواصلته لهم وتوكُّلهم عليه بوكالته إيّاهم، تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:٣٥]. مع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل ٩٩].

وللعبد فى التفكُّر والتدبُّر لما يستقبل بكلّ كلمة شغلٌ عما فات مما كان عمله، وله فى الشغل فى الحال اقتطاعٌ بما قد فَهِمه، وما فَهِمَه من غير ما يتلوه، فاستدل به على ما سواه مما يعينه ويحتاج إليه؛ فهى أبوابٌ من الفطنة تُفتح له، فيكون الكَلِمُ مفتاحَها. ثم يخرج العبد إلى سواها مما هو له أصلح أو عليه أوجب. فليعرف بذلك ما عرف، وليقف من ذلك على ما عليه أُوقف، وما تفكر فيه من غير تدبر التلاوة، أو شغل به من غير فهم المتلوّ، فهو حجابٌ له عن الفهم، وقطعٌ له عن خالص العلم، فليقطع ذلك.

والتمام فى التلاوة أن يتدبر التالى باطن الكلام، ويتفكر فى غوامض الخطاب، ويوقف قلبه على معانى المراد، ويُعمل فكره فى تذكُّر الموصَّل والترداد، فإن الكلام

عزيزٌ من عزيز، ولطيفٌ من لطيف، وحكيمٌ من حكيم، وعلىٌّ من علىٍّ، ظاهره سهلٌ قريب، وباطنه بحرٌ عميق، يقول السامع إذا عقله: قد فهمتُه؛ لتجلى فحواه، فإذا شهده كأنه ما سمعه لدقيق معناه. يحسب العاقل أنه قد عرفه لظهور بيانه وتفصيل حكمته، فإذا عُرِّفَ المتكلم به كأنه ما عَقَلَه؛ لعمق بحاره، وسعة أقطاره. قد اغترّ به قومٌ لما سمعوا بيانه، فادّعوا أنهم يحسنونه، وخُدِع به آخرون لما عقلوا أمثاله، فطلبوا غيره وسألوا أبداله، وأصغى آخرون إلى سمعه، فادّعوا فهمه، فأكذبهم الصادق وعزلهم عن سمعه، ثم أخبرنا بجميع ذلك عن جهلهم، وعجَّبنا من جراءتهم، فقال فى وصف الأولين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

وقال فى نعت الآخرين: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم وصف من أسمعه إياه وأفهمه معناه من الجنّ الذين هم أشدُّ قوةً من الإنس وأعظمهم وصفًا، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن ١ - ٢]. فهؤلاء ممّن عقله فمدحهم بفهمه، وأخبر عن صاحب التنزيل بمثله فقال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] أى عجبت من القرآن وتفصيله وتنزيله، ويسخر منه الجاهلون.

فإن فُتح للتالى بالتلاوة عين يقين[1] المتلوِّ باب[2] الفكر فى معانى العظمة والقدرة، وكُشف له بواسطة الكلام مشاهدةُ ما كان علمه من وعد الآخرة ووعيدها، فله أجران، من حيث كان منه عَمَلان: الفكر والصّلاة. وهذا كله لعموم المؤمنين مزيد، وهو للخصوص من المقربين دون ذلك، إلا ما وجّهوا به من طوالع

(١) فى المطبوعة: «نفس» وأثبت ما فى (د)

(٢) فى (م): «غير نفس المُتلوّات»؛ ولعل فيها تصحيفًا

الغيوب، وأُطلعوا عليه من مطالع سرائر المحبوب، فكُوشفوا به من بوادى اليقين من العزة والجبروت، والإجلال والرهبوت، مِمّا هُجم عليهم من غير تفكّر منهم، ولا تدبُّر مما استعملهم به، واضطّرهم إلى مشاهدته القديرُ، فأخرس ألسنتهم عن المقال، وعقَم عقولهم عن المحال، وأغنى قلوبهم عن الطلب، ولم يُوكل إلى فكرهم بنظرٍ إلى سبب، بل من غير تعمُّل منهم لتكييفه، ولا دراية ولا اختيار لماهيته، ثم يجاوزونه إذا أخذ منهم حقَّه، وأدركوا به نصيبهم إلى العالم الأكبر، فيقفون بين يديه ويحطُّون عنده، ولا يقفون مع المشاهدة طرفة عين، ولا يسكنون إليها خَطرةَ قلبٍ؛ لئلا يقطعهم البيانُ عن المبين، ولا يشغلهم الخبرُ عن اليقين، ولا تحجبهم الشهادة عن الشهيد، ولا يحبسهم البادئ العائد عن المبدئ المعيد؛ بل قد أشرف بهم على المراد، فأسقط عنهم التشرُّف، وأذهلهم عن الاعتراف والتعريف بما ناداهم به من التعرُّف، واقتطعهم العيان فأغناهم عن الانقطاع، وتقطّعوا بالمفصَّل فأنساهم الانتفاع، وتوصلوا بالموصل فأطلعهم عليه، وكان لهم حاملاً إليه، ودليلاً أمامهم منه عليه؛ وهذه صفة الأقوياء بالقوىّ، الأغنياء بالغنىّ، الواجدين للمُوجِد، الفاقدين للموجد[1]، الذاكرين بذاكر، الصابرين بصابر.

ولا ينبغى للمصلى أن يدخل فى صلاته حتى يقضى نُهمته، ويفرغَ من حاجته، ولا يبقى عليه ما يزعج قلبه، ويفرّق همَّه، ليفرغ قلبه فى صلاته، ويجتمع همَّه فى وقرفِهِ، ويصحو عقله لفهمه، ويواطئ قلبُه قِيلَه، ويقبل على المقبل عليه بمعقوله؛ وهذا يؤمر به الضُّعفاء عن مجاهدة الأعداء، والمرضى عن مسابقة الأولياء. وقد روى عن رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفى كُلٍّ خير»، وقد قال الله تعالى: ﴿**لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى**﴾ [النساء: ٩٥].

(١) عبارة (هـ): «الواجدين بموجد اليد، فهى للموجد». وعبارة (د): «الواجدين بموجد، الفاقدين للموجد».

كتاب الزكاة

شرح ثالث ما بنى الإسلام عليه، وهو الزكاة

فأما فرض الزكاة فأربع: الحرية، وصحة المِلْك، ووجود النِّصاب؛ وهو مائتا درهم أو عشرون ديناراً، واستكمالُ الحَوْلِ؛ وهو من شَهْرٍ إلى مثله.

• ذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء، وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس فى المال حقٌّ سوى الزكاة».

وعن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن فى المال حقوقًا غير الزكاة، منهم: إبراهيم النخعى، قال: كانوا يرون أن فى المال حقوقًا سوى الزكاة؛ ومنهم: الشعبى، سئل: أفى المال حقٌّ سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى﴾ [البقرة:١٧٧] الآية. ومنهم: عطاء ومجاهد.

وقد كان المسلمون يرون المؤاساة[1]، والقَرض، والقيام بمؤن العَجَزة عن أنفسهم وأهلهم، من المعروف والبر والإحسان، وأن ذلك واجبٌ على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف. وكذلك مذهب جماعة من أهل الفَسْر أن قوله عز وجل: ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣]، وقوله: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٥٤] مأمور به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخلٌ فى حق المسلم على المسلمين، وواجب بحرمة الإسلام ووجود الحاجة.

فمن فضائل الزكاة: أن يخرجها فى أول ما تجب عليه، وأن يقدمها قبل وجوبها، إذا رأى لها موضعًا يتنافس فيه، ويغتنم خوف فوته؛ من غازٍ فى سبيل الله عز وجل، أو فى دَيْنٍ على مُطالَب، أو جهاد وغزوٍ، أو إلى رجل فقير فاضل طرأ فى وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل

(١) فى المطبوعة: «المساواة» وهو تحريف، وغير ذلك كثير مما تركت الإشارة إليه فيما مضى من أول الكتاب.

وأزكى؛ لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى، وداخل فى التطوع بالخير وفعله الذى أمر به، ولا يأمن الحوادث، إذ فى التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدَوات، وللقلوب تقليبٌ.

وإن جعل رأسَ الحولِ أحدَ الشهرين كان أفضل، فإن فى هذين خاصية من الفضائل ليست فى غيرهما.

فأمّا شهرُ رمضان فإنّ الله تعالى خصّه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، وجعله مكانًا لأداء فرضه الذى افترضه على عباده من الصيام، وشرّفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام. وقد كان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان. وقد رفعه إسماعيل بن أبى زياد فجاء به مسندًا.

وأما ذو الحجة فإنا لا نعلم شهرًا جمع خمس فضائل غيره: هو شهرٌ حرام، وشهر حجٌّ، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات؛ وهى العشرة، والأيامُ المعدودات؛ وهى أيام التشريق التى أمر الله تعالى بذكره فيها.

وأفضل أيام فى شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام فى شهر ذى الحجة العشر الأول.

وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدِّم فى كلّ سنة بشهر، لئلا يكون مؤخِّرًا عن رأس الحول؛ لأنه إذا أخرج فى شهر معلوم، ثم أخرج القابل فى مثله، فإن ذلك الشهر يكون الثالث عشر؛ وهذا تأخير. فقالوا: إنه إذا أخرج فى رجب فليُخرج من القابل فى جمادى الآخرة؛ ليكون آخر سنته بلا زيادة. وإذا أخرج فى رمضان فليُخرج من قابل فى شعبان على هذا؛ لئلا يزيد على السنة شيئًا. وهذا أحسن، وليتق أن يكون مخرجًا للفرض فى كل شهر، ثم أن يخرجها طيبةً بها نفسه، مسرورًا بها قلبه، مخلصًا لربه، مبتغيًا بها وجهه، لغير رياءٍ ولا سمعة ولا تزيُّن ولا تصنُّع. ولا يجب أن يطلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو فى إعطائها ولا يخاف فى منعها سواه، وليكن ناظرًا إلى الله تعالى، عارفًا بحسن توفيقه له، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه ولا

يزدريه، وليعلم أن الفقير خيرٌ منه؛ لأنه جُعل طُهرةً وزكاةً ورفعةً ودرجةً فى دار المقام والحياة، وأنه هو قد جُعل سُخرةً للفقير وعمارةً لدنياه.

كما حدثنا بعض العارفين قال: أُريد منى ترك التكسب وكنت ذا صنعة جليلة، فجال فى نفسى من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف: لا أراك تنقطع إلينا، وتتهمنا فيك علينا، أن نُخدمك وليًّا من أوليائنا، أو نُسخِّر لك منافقًا من أعدائنا.

وأن يُسرَّ ذلك إلى الفقير سرًا، ولا يذكر ذلك. فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ والأَذَى﴾ [البقرة:٢٦٤] قال: المنّ: أن تذكرها، والأذى: أن تظهرها، وحُدِّثت عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: مَنْ مَنَّ فسدت صدقته. قيل: كيف المنُّ يا أبا نصر؟ قال: أن تذكره أو تحدِّث به. وبعضهم يقول: المنُّ: هو أن تستخدمه بالعطاء، والأذى: أن تعيّره بالفقر. وقيل: المنّ: أن يتكبر عليه، لأجل أن يعطيه، والأذى: أن تنهره أو توبخه بالمسألة.

وفى الحديث: «أفضل الصدقة جُهْدُ الْمُقِلِّ إلى فقير فى سرٍّ». وقال بعض العلماء: ثلاثة من كنوز البرّ، منها: إخفاء الصدقة. وقد رُويناه مسنداً من طريق. وذلك أسلم لدينه، وأقلُّ لآفاته، وأزكى لعمله.

وقد روينا فى الخبر: «لا يقبل الله من مُسمعٍ ولا مُراءٍ ولا منَّان»، فجمع بين المنَّة والسُّمعة، كما جمع بين السمعة والرِّياء، وردّ بهن الأعمال.

فالمُسمع الذى يتحدث بما صنعهُ من الأعمال ليُسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقامَ الرؤية للعمل، فهو مشتق من السمع، كالرؤيا مشتق من الرؤية، فسوَّى بينهما فى إبطال العمل؛ لأنهما عن ضعف اليقين، إذ لم يكتف المسمع بعلم مولاه، كما لم يقنع المرائى بنظره فأشرك فيه سواه، وألحق المنَّان بهما؛ لأنّ فى المنة معناهما من أنه ذكَره فقد سمِعَ غيره به، أو رأى نفسه فى العطاء ففخر به وأدّاه سرًا، فإن أظهره نُقل من السرّ وكُتب فى العلانية، فإن تحدَّث به مُحى من السرّ والعلانية فكتب رياء، فلو لم يكن فى إظهار الصدقة مع الإخلاص بها إلا فوتُ ثواب السر لكان فيه نقص عظيم.

فقد جاء فى الأثر: «تَفضُل صدقةُ السرِّ على صدقة العلانية سبعين ضعفًا». وفى الحديث المشهور: «سبعةٌ فى ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يومَ لا ظِل إلا ظله، أحدهم رجلٌ تصدق بصدقةٍ فلم تعلَم شماله ما أعطت يمينه». وفى لفظ آخر: «فأخفى عن شماله ما تصدقت به يمينه». وهذا من المبالغة فى الوصف، وفيه مجاوزة الحدِّ فى الإخفاء، أى يُخفى من نفسه فكيف غيره؟

وقد تستعمل العرب المبالغة فى الشىء على ضرب المثل والتعجب، وإن كان فيه مجاوزة للحد. من ذلك أن الله عز وجل ذمَّ قومًا ووصفهم بالبخل، وبالغ فى وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء.٥٣]. والنقير لا يريده أحدٌ ولا يطلبه ولا يعطاه؛ لأنه هو النقطة التى تكون على ظهر النواة، منه منبت النخلة.

وفيه معنًى أشد من هذا وأغمض: أنه لما قال: «فأخفى عن شماله» كان لهذا القول حقيقة فى الخفاء، فهو أن لا يحدِّث نفسه بذلك، ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلاَّ أن لا يرى نفسه فى العطاء أصلاً، ولا يجرى وَهْمُ ذلك على قلبه، كما يقول فى سر الملكوت: إن الله تعالى لا يُطلع عليه إلاّ من لا يحدِّث به ويخفيه، وليس أعنى عن غيره، لكن يخفيه من نفسه ولا يحدثها به، بمعنى أنه لا يخطر على قلبه، ولا يذكره، ولا يشهد نفسه فيه شغلاً عنه بما اقتطع به، وبأنه لا يباليه؛ فعندها صلُح أن يظهر على السر. فإن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك، فأخفِ نفسك منها، حتى لا يعلم المعطى أنك أنت المعطى؛ وهذا مقام فى الإخلاص، فإن أظهرت يدك فى الإعطاء فأخفها سرًا إلى المعطى؛ وهذا حال الصادق. فقد كان بعض المخلصين يلقى الدّراهم بين يدى الفقير، أو فى طريقه، أو موضع جلوسه، بحيث يراه ويأخذه، وهو لا يعلم مَن صاحبه، وبعضهم كان يصرُّ ذلك فى ثوبه وهو نائم فلا يعلم من جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك. فأما من كان يوصل إلى الفقير على يد غيره ويَستكتِمه شأنه فلا يحصى ذلك من المسلمين.

وفى الخبر: «صدقة السرّ ـ وقيل: صدقة الليل ـ تطفىء غضب الربّ تعالى».

وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضل، ومعه يكون تكفير السيئات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فإن أظهر المسكين نفسه، وكَشَفها للسُّؤَّال، وآثر التبذُّل على الصون والتعفُّف؛ فلا بأس أن تظهر معروفك إليه. فإن أظهرت زكاتك إرادة السنَّة، والاقتداء بك، والتحريض على مثل ذلك من غيرك؛ لينافسك فيه أخوك، فيسرع إلى مثله أمثالك منهم ـ فحسن؛ وذلك من التحاضِّ على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه. وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢] قيل: سرًا: التطوّع، وعلانيةً: الصدقة المفروضة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] القرض الحسن: هو التطوع، وقد قيل: الحلال. كما قال: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] أى حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] فمدح المبدى بنعم. إلاّ أنّ ذلك لا يحسن إلا إلى من أبدى نفسه، كأنه هذا السائل الذى يسأل بلسانه وكفه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ [البقرة: ٢٧١] الآية كأنها للمستخفين بالمسألة، وهى لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم الحياء والتعفف. من أظهر نفسه فأظْهِرْه إليه، ومن أخفاها فأخْفِ له. ومثل ذلك مثل كشف عورة الفاسق: إنما حَرُم عليك أن تُظهر عورةَ مَن يُخفى عنك نفسه ويستتر، فأمّا إذا أظهر نفسه بها وأعلن، فلا بأس أن يُظهِر عليه، كما جاء فى الخبر: «من ألقى جلبابَ الحياء فلا غيبة له».

وينبغى أن يجعل صدقته من أفضل ما يحبه من المال، ومن جيّد ما يدّخر ويقتنى وتستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل له فقال: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ، ثم قال: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ ، ثم قال فى ضرب المثل بالعبيد: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أى: لا تقصدوا الردئ فتجعلوه لله تعالى، ولو أُعطى أحدُكم ذلك لم يأخذه إلا على إغماض؛ أى كراهية وحياء.

ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيده لنفسه، أو ما يكره أن يقتنيه لعاقبته، أو يأخذه من غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنبيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو عبدًا مثلك على مولاك، فإن هذا من سوء الأدب، ولا يقوم سوءُ أدبٍ واحدٍ فى معاملة بجميع المعاملات.

وقد روى فى معنى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذى يُقرِضُ اللهَ قَرضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، قال: حلالاً طيبًا، فإن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

وفى حديث أبان عن أنس: «طوبى لعبدٍ أنفقَ من مالٍ اكتسبه من غير معصية». وفى الخبر: «سبق درهم مائة ألف درهم».

وقد تهدد الله تعالى قومًا جعلوا له ما يكرهون، ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى، فأكذبهم، فى قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكرَهُونَ وَتَصِفُ أَلسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ [النحل:٦٢] أى حقًا لهم النار. وفى الآية وقف غريب لا يعلمه إلاّ الحذّاق من أهل العربية، تقف على «لا» فيكون نفيًا لوصفهم أن لهم الحسنى، ثم تستأنف «جَرَم أنّ لهم النّار» أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار، أى بجرمهم واكتسابهم.

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه، حتى يكون ذلك جزاء؛ لقوله: «وتخلص لك صدقتك وإلاّ كان دعاؤه مكافأةً على معروفك». فقد كان العلماء يتحفّظون من ذلك، وهو أقرب إلى التواضع، ولا ترى أنك مستحقٌ لذلك منه لما وصلته به، لأنّك عامل فى واجب عليك لمعبودك، أو تُوفِّى للمعطى رزقه وما قُسِم له من تعبدك بذلك. وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفًا إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعو به، ثم يردّان عليه مثل قوله، ويقولان: حتى تخلُص لنا صدقتنا. وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما.

ولا ينبغى أن تقتضى من الفقير الدعاء لك، أو تطالبه بذلك، أو تحبّ منه الثناء والمدح على ذلك، فإنه يُنقص من الصدقة، وإذا كثر منك وقوى أحبطها، وإن

كان عليه أن يدعو لك ويثنى به عليك فإنما يعمل فيما تعبَّده مولاه به وأمره به، فلا ترى ذلك من حقك عليه، وإذا وصَلتَ إلى الفقير معروفًا، فبحُسن أدب، ولين جانب، ولطف كلام، وتذلل وتواضع.

وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيئًا بسط كفه بالعطاء، لتكون يد الفقير هى العليا. وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض، ويسأله قبولها منه؛ ليكون هو السائل، ولا يناوله بيده إعظامًا له. وهذا يدلّ على معرفة العبد بربه، وحسن أدبه فى عبادته.

ومن أحبّ الثناءَ والذِّكر على معروفه كان ذلك حظَّه منه وبطل أجره[1]، وربما كان عليه فضلٌ من الوِزر؛ لمحبته الذِّكر والثناء فيما لله تعالى أن يفعله، وفى رزق الله لعبده الذى أجراه على يده، فإن تخلّص[2] سواءً بسواء فما أحسن حاله.

وأستحبُّ للفقير أن يخص ذا المعروف إليه بدعوات؛ شكرًا لما أولاه، وتأدُّبًا وتخلُّقًا بفعل مولاه، لأنّه قد جعله سببًا للخير، وواسطة للبرّ، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطاء، ثم قد أثنى على عبده وشكر له فى الإعطاء، فليقل: طهَّر الله قلبك فى قلوب الأبرار، وزكَّى عملَك فى عمل الأخيار، وصلّى على روحك فى أرواح الشهداء. فذلك هو شكرُ الناس، والدعاءُ لهم، وحسنُ الثناء عليهم. ومن شُكرهم أيضًا أن لا يذمهم فى المنع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى»، فإن فيه إثبات حُكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب فى إظهار النِّعم، والتخلّق بأخلاق المنعم؛ لأنه أنعم عليهم، ثم شكر لهم كرمًا منه. وكذلك فى الخبر: «العبد الموقن يشهد يد مولاه فى العطاء»، فحمده ثم شكر للمتقين، إذ جعلهم مولاه سبب حمده وطُرقًا لرزقه، ففى الخبر: «مَن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتّى تَرَوا أنّكم قد كافأتموه».

---

(١) العبارة فى (د، م): «ولا تحبَّن الثناء والذكر من الفقير على معروفك، أو تقتضى فى نفسك المدح منه والإكرام، فإن فعل ذلك كان مكافأة منه لبرِّك، وحبط أجرك».

(٢) فى (د، م): «فإن تخلصتَ».

فأما شكر الله تعالى على العطاء فهو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى، لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها.

ومن فضل الصدقة أن يقصدَ بها الفُقراءَ الصالحين الصادقين من أهل التصوّن والدِّين، ممّن يؤثر التّسترَ والإخفاءَ، ولا يكثر البَثَّ والشكوى، وممّن فيه وصف من أوصاف الكتاب: ﴿لِلفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ أى حُبسوا فى طريق الآخرة لعيلة، أو ضيق معيشة، أو إصلاح قلب، أو قصور يد ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرضِ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح، إذ المال للغنىِّ بمنزلة الجناح للطائر يطير بماله حيث يشاء من البلاد، وينبسط فى شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك لا يستطيعه لقبض يده وقَدْرِ[1] رزقه. ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُوَارِى سَوءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الاعراف:٢٦] قيل: المال. وقيل: المعاش ﴿يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ فسمى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يشهد وصفهم بالتقلل، لظهور تعففهم عن المسألة، جاهلاً بوصف المؤمنين. ثم وكّد وصفهم وأظهر للخلق تعريفهم؛ بيانًا منه، وكشفًا لحالهم، إذ ستروها بالعفة، فقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فالسيما هى العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلّى، واللبسة الظاهرة ﴿لا يَسأَلُونَ النَّاسَ إِلحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣] أى بهذه العلامة أيضًا تعرفهم إن أشكلوا عليك، فإنهم لا يسألون عفةً وقناعةً إلحافًا، لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفون أهل الدنيا تملقًا وضراعةً؛ أى هم منفردون بأحوالهم، أغنياء بيقينهم، أعزةٌ بصبرهم، والإلحاف: مشتق من اللحاف الذى يُلتحف به فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل ذلك، لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة إلزامًا كالصنعة، كما يُلتحف بالثوب. فاحرص أن يكون معروفُكَ فيمن فيه هذه الأوصاف أو بعضها، فيزكو عملك ويُشكر سعيك.

والأفضل فى المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفُقراء على غيرهم من

(١) قدر عليه رزقه يَقْدِره قَدْرًا: ضيَّقه.

الأجانب. فقد روى عن عليٍّ رضى الله عنه: لأن أصل أخًا من إخوانى بدرهم أحبُّ إلىَّ من أن أتصدَّق بعشرين درهمًا، ولأن أصله بعشرين درهمًا أحبُّ إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحبُّ إلىَّ من أن أعتق رقبةً.

ولأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب، فكان فضل الصدقة على الأقارب دون البعيد كفضل الصدقة على القرابة دون الأباعد، لأنه ليس بعد صلة الرحم فى معناها أفضل من صلة الإخوان. وكان بعض السلف يقول: أفضل الأعمال صلة الإخوان.

وليقصد ببرِّه من إذا دفع إليه العطاء حمد الله تعالى وشكره، ورأى النعمة منه، ولم ينظر إلى واسطة فى نعمة، فإن هذا أشكر العباد لله تعالى؛ لأن حقيقة الشكر لله شهودُ النعمة منه، والإخلاص بحسن المعاملة له، وأن لا يشهد فى النعمة بالعَطاء والنعمة بالعمل الصالح سواه.

وفى وصية عليٍّ رضى الله تعالى عنه: لا تجعل بينك وبين الله تعالى مُنعمًا، واعْدُدْ نعمة غيره عليك مَغرمًا.

فليقدِّم مثل هذا على من لو أعطاه رزقه أثنى عليه ومدحه، وشهده فيه فحمده، فيكون قد حمد غير الذى أعطاه، ونظر إلى سواه، وذكر غير الذى ذكره؛ لأن الذى يحمد الله ويشكره، ويثنى عليه برزقه ويذكره، يرى أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم المعطى، فينظر إليه من قُرب؛ فيقينُ هذا بالله أنفع لصاحب المعروف عند الله من دعاء الآخر المثنى؛ لأنه كان سببًا لنفع موقن، فيكون واضعًا للشىء فى حقيقة موضعه. ومدح الآخر ودعاؤه، لأجل أنه يراه هو المعطى، فينظر إليه فيمدحه، فضعف يقين هذا بربه أشدُّ على المنفق من دعائه له، إن كان ناصحًا لله تعالى فى خلقه ولخلق الله تعالى فيه، إلا أن لا ينصح لمولاه لغلبة هواه على تقواه، ولجهله بعائد النفع له فى عقباه، فنقص هذا حينئذ بمقامه من التوحيد أعظم من زيادته بصدقته، على أنه لا يؤمن الاستشراف من الآخر إليه، والاعتياد منه، والطمع فيه، فيتأذى بذلك فى عاجلته قبل الآجلة، أو تَضْجَرُ فيتبرم به، فيتكلم فيه بكلام يحبط عمله. وأيضًا فإنه إذا رآه فى العطاء، فإنه يراه

عند المنع، فيذمه ويقع فيه، فيكون هو سببَ حمله عليه، وهو آمن مطمئن لهذا كلّه مع الموقن المشاهد.

وفي الخبر: «إنّ الصدقة تقع بيده الله تعالى قبل أن تقع بيد السائل وهو يضعها في يد السائل». فالموقن يأخذ رزقه من يد الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله تعالى، ولا يطلب منه إلا كما أمره في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

ووجَّه رسول الله ﷺ إلى بعض الفقراء بمعروف، وقال للرسول: احفظ ما يقول. فلما أوصله إليه قال: الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذَكَره، ولا يضيِّع مَنْ شكَره، ثم قال: اللهم إنك لم تنسَ فلانًا، يعني نفسه، فاجعل فلانًا لا ينساك. فأخبر الرسولُ رسولَ الله ﷺ بذلك، فسُرَّ به وقال: قد علمت أنه يقول ذلك.

وقد روى هذا عن عمر، وعن أبي الدرداء مع جرير رضي الله عنهم.

وقال ﷺ لرجل: «تب». فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله ﷺ: «عرف الحقَّ لأهله». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الإفك: نحمدُ الله ولا نحمدك. فسره ذلك. وقال لها أبو بكر لما نزل تحصينها وبراءتها: قومي فقبِّلي رأس رسول الله ﷺ. قالت: والله لا أفعل ولا أحمدُ إلا اللهَ. فقال رسولُ الله ﷺ: دعها يا أبا بكر. وفي لفظ آخر أنّها قالت لأبي بكر: نحمد الله، ولا نحمدك ولا نحمد صاحبك. فلم ينكر رسول الله ﷺ ذلك بل سره وأمر أباها بالكف عنها.

وقد جعل الله تعالى من وصف الكافرين أنهم إذ ذُكر الله وحده في شيء انقبضَت قلوبهم، وإذا ذُكر غيره فرحوا، وجعل من نعتهم أنهم إذا ذُكر توحيده وإفراده عند شيء غطُّوا ذلك، وإذا أُشرك غيره في ذلك صدّقوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِه إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥]. وقال أيضًا: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ والكفر: التغطية ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ والشرك: الخلط، أي يخلط

بذكره ذكر سواه. ثم قال: ﴿فَالْحُكْمُ لله العَلِيِّ الكَبيرِ﴾ [غافر:١٢] يعنى لا يشركه فى حكمه خَلق، لأنه العلى فى عظمته، الكبير فى سلطانه، لا شريك له فى ملكه وعطائه، ولا ظهير له من عباده. ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين إذا ذُكر الله تعالى بالتوحيد والإفراد فى شيء انشرحت صدورهم، واتسعت قلوبهم، واستبشروا بذكر الله تعالى وتوحيده، وإذا ذُكر الأواسط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم؛ وهذه علامةٌ صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك، لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب، أو وجود خفىِّ الشرك فى النفس، إن كنت عارفًا.

وينبغى أن يجعل صدقته من أجلِّ ما يقدر عليه، وأطيبه فى نفسه وجهده، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا. وزكاء الصدقة ونماؤها عند الله تعالى على حسب حِلِّها ووضعها فى الأخص الأفضل من أهلها. وينبغى أن يستصغر ما يعطى، فإن الاستكثار من العُجب، والعُجب يحبط الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة:٢٥]. ويقال: إن الطاعة كلما استُصْغرت كَبُرت عند الله تعالى، وإن المعصية كلما استُعظمت صَغُرت عند الله تعالى. وعن بعض العلماء: لا يتمّ المعروف إلا بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

وقد كانوا يدفعون فى الزكاة المئين، وفى التطوع الألوف، وكان يَصِلُون الفقير بما يخرجه من حد الفقر ومن الحاجة والضرّ إلى حد الكفاية والغُنية، ويبقى لهم فَضلٌ. وعلى هذا تأويل قوله ﷺ: «خيرُ الصدقة ما أبقت غنى»؛ أى تكفى الفقير لوقته، ويبقى له غُنية واستغناء لوقت ثانٍ تستقلُّ به عن المسألة والتشرُّف، فيكون كأنه عمل عملاً ثانيًا للمعطى غير عمله الأول بالعطاء؛ وهذا أحدُ تأويل الخبر.

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة بأوصاف خمسة فرّقها فى كتابه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٩]. وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦]. وقال عزَّ وجل: ﴿فَكُلُوا مِنهَا وَأَطعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

فأما السائل: فهو الذى يسأل بكفّه، ويُظهر السؤال بلسانه. وأما المحروم: فهو المحارف الذى حارفه الرزقُ، أى: انحرف عنه، فقد حُرمه. وقيل: هو الذى لا معلوم له ولا كَسْب، قد حُرِم التّصرف والتعيش. وأما القانع: فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما آتاه الله من غير طلب ولا تعرّض. وقيل: إن القُنوع هو وصفٌ من أوصاف المسألة من غير إلحاف ولا إلحاح، وهو اسم من الأضداد، يكون القُنوع: العفّة والكف؛ ويكون المسألة. وأما المعترُّ: فهو الذى يعرض بالسؤال ولا يصرح، تحمله الحاجة على التعريض، ويُوقفه الحياء عن التصريح. وأما البائس: فهو الذى به بُؤس وشِدّة من مرض أو بَرْد أو عَضب وزَمَانة[1].

ثم إن الله تعالى قد فصل بين الفقراء والمساكين فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ والْمَساكِينِ**﴾ [التوبة: ٦٠] فقال أهل العلم: الفقير الذى لا يسأل، والمسكين السّائل. وقيل: الفقير المحارِف؛ وهو المحروم، والمسكين: الذى به زَمَانة، واشتقاقه من السُّكون، أى فقد أسكنه الفقرُ لما سكّنه وأقلَّ حركته؛ وهذه أوصافه. يقال: قد تَمَسكَن الرجلُ وتسكّن. كما يقال: تَمَدْرع وتدرّع إذا لبس مدرعة. فكذلك الفقير إذا كانت المسألة لبسة له.

وأهل اللغة مختلفون فيهما. قال بعضهم: المسكين أسوأ حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**أَوْ مِسكِينًا ذَا مَتربَةٍ**﴾ [البلد: ١٦]، فهو الذى لا شىء له، قد لصق بالتراب من الجهد. وذهب إلى هذا القول يعقوب بن السكيت، ومال إليه يونس بن حبيب، وقال: قلت مرة لأعرابى: أفقيرٌ أنت؟ فقال: لا واللهِ بل مسكين أسوأ حالاً من الفقير.

وبعضهم يتناوله على غير هذا فيقول: «ذا متربة» من الغنى. يقال: أترب الرجل إذا استغنى، فهو مترب من المال؛ أى قد كان متربًا غنيًا من أهل النعم ثم افتقر، فهذا أفضل مَن أُعطى.

(١) العَضب: القطع، يقال: عَضَبه يَعضبه عَضبًا: قطعه. وتدعو العرب على الرجل فتقول: ما له عضبه الله؟ يدعون عليه بقطع يده ورجله.
الزمانة: المرض يدوم زمنًا طويلاً. فهو زَمِنٌ وزَمِينٌ.

وقال بعض أهل اللغة فى قوله تعالى: ﴿ذا متربة﴾ دليل أن المسكين أحسن حالاً. قال: إن الله تعالى لما نعته بهذا خاصةً علمتَ أنه ليس كل مسكين بهذا النعت. ألا ترى أنّك إذا قلت: اشتريت ثوبًا ذا عَلَم، نعتَّه بهذا النّعت، لأنه ليس كلّ ثوب له علم. فكذلك المسكين الأغلب عليه أن يكون له شىء، فلمّا كان هذا المسكين مُخالفًا لسائر المساكين بيَّن الله تعالى نعته؛ وبهذا المعنى استدلّ أهل العراق من الفقهاء أن اللمس هو الجماع بقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأيديهم﴾ [الأنعام:٧] أن اللمس يكون بغير اليد وهو الجماع، فلما قال: ﴿بأيديهم﴾ خص به هذا المعنى، فردّوه على من احتج به من عُلماء الحجاز فى قولهم: اللمس باليد.

وقال آخرون: بل الفقير أسوأ حالاً من المسكين؛ لأن المسكين يكون له الشىء، والفقير لا شىء له. قال الله تعالى فى أصحاب السفينة: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعمَلُونَ فى البَحرِ﴾ [الكهف:٧٩] فأخبر أن لهم سفينةً وهى تساوى جملةً.

وقالوا: سمى فقيرًا؛ لأنه نُزعت فقْرة من ظهره، فانقطع صلبه من شدّة الفقر، فهو مأخوذ من فقار الظهر، ومال إلى هذا القول الأصمعى، وهو عندى كذلك، من قِبَل أن الله تعالى قدّمه على الأصناف الثمانية التى جعل لهم الصدقة، فبدأ به، فدلّ على أنّه هو الأحوج فالأحوج، أو الأفضل فالأفضل.

وقال قوم: الفقير هو الذى يُعرف بفقره لظهور أمره، والمسكين هو الذى لا يُفطن له ولا يُؤبَه به لتخفّيه وتستّره. وقد جاءت السنّة بوصف هذا فى الخبر المروى: «ليس المسكينُ الذى ترده الكسرة والكسرتان، والتمرة والتمرتان، إنما المسكينُ المتعفّفُ الذى لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه».

وقد قال بعض الحكماء فى مثل هذا، وقد سئل: أى الأشياء أشدّ؟ فقال: فقير فى صورة غنى. وقيل لحكيم آخر: ما أشدّ الأشياء؟ قال: من ذهب ماله وبقيت عادته. وقال الفقهاء: المسكينُ الذى له سبب، ويحتاج إلى أكثر منه، لضيق مكْسب، أو وجود عيلة. فهذا أيضًا قد وردت السنّة بفقره، وذُكر فضله فى الحديث الذى جاء: «إنّ الله يحبّ الفقير المتعففَ أبا العيال، ويبغض السائل

الملحف». وكل هذه الأقوال صحيحة.

فالأفضل أن توضع الزكاةُ فى الأحوج فالأحوج، والأفضل فالأفضل، ومن أهل العلم بالله تعالى، وأهل المعاملة، وأهل الدين لله، المنقطعين عن أهل الدنيا، المشغولين بتجارة الآخرة عن تجارات الدنيا، ثم فى ذى العيال بقدر عياله بمقدار غناه عن حاجاته، فيكون له بعددهم أجور أمثاله من المنفردين إذ هم جماعة.

وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها.

وكذلك فى السنة، روينا عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أخرج العطاء فرّقه بين أصحابه، يعطى المتأهلَ ضعف ما يعطى العزَب، ويعطى كلَّ رجلٍ على قدر أهل بيته.

وحُدِّثنا عن بعض هذه الطائفة قال: صَحِبنا أقوامًا كان برُّهم لنا الألوف من الدراهم، انقرضوا وجاء آخرون كان برُّهم لنا المئين، ونحن بين قوم صلتهم لنا العشرات، نخاف أن يجئ قوم شراً من هؤلاء.

وقال بعض السلف: رأينا قومًا كانوا يفعلون ولا يقولون، ذهب أولئك، وجاء قوم يقولون ويفعلون، ونخاف أن يجىء قوم يقولون ولا يفعلون.

وإن اتفق ذو دَينٍ فى عيلة من مساكين فذلك غنيمة المتقين، وذخيرة المنفقين. والمعروف فى مثله واقعٌ فى حقيقته. وسُئل ابن عمر عن جهد البلاء ما هو، فقال: كثرة العيال وقلة المال.

وقد جاء فى الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى»؛ لأن التقى تستعين به على البر والتقوى فتَشْرُكه فى قصده. وفى الخبر أيضًا: «أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين». وفى لفظ آخر: «أضِف بطعامِكَ مَن تُحبُّه لله تعالى».

وينبغى للموقن أن يفرح ويُسَرَّ بقبول معروفه من الأتقياء؛ لأنّ ذلك عمله، إن لم يقبله منه عارفٌ بالله تعالى وأحكامه، وقد رُدَّت عليه أعماله، فينبغى أن يحزن

بردها عليه، إذ كان ذلك ردًا من الله تعالى له.

ومن وصَل فقيرًا بمعروف، فردَّه عليه، فعظُم الفقيرُ في عينه، فذلك يدل على جهل المعطى بربه؛ لأنه لو أخذها ما سقط منزلته عنده، ثم أخرجها سرًا إلى من هو أحوج إليها منه كان بذلك فاضلاً، ومَن ردَّ عليه فقيرٌ بِرَّه فلم يحزنه ذلك أو سرّه ذلك، دلَّ على ضعف نيته في الإخراج، وقلة إخلاصه بمعروفه؛ لأنّ الصادق يسوءه ردُّ معروفه إليه ويحزنه. وينبغي أن لا يتملَّك ذلك أن ردّه عليه، بل يدفعه إلى فقير آخر، لأنه قد أخرجه لله تعالى، فلا يرجع فيه. والفقراء شركاء في العطاء يُردّ عليهم من بعضهم إلى بعض.

وكذلك إن أخرج صدقةً باسم فقير بعينه، ليحظيه إيّاها، فصادف غيره، أو ذكر من هو أحوج منه أو أفضل، ووافق طالبًا إليه في حق عليه، فلا بأس أن يدفعها إلى الثاني، ما لم تخرج عن يده، أو يكون قد وعده بها. وكذلك إن دفعها إلى من يدفعها إلى فقير بعينه ثم رأى من هو آثر في قلبه وأحوج منه، فله أن يسترجعها من المأمور ويدفعها إليه، ما لم يكن قد فقدها أو أعلمه بها.

وينبغي أن يستبشر بقبول العارفين معروفه؛ لأن ذلك قبولٌ من الله تعالى لعمله، إذ كان العارف بالله تعالى وأيامه يتصرفُ عن الله تعالى في الأفعال، كما أنه ينطق عنه في المقال. وليس قبوله منه كقبول غيره، ولا ردُّه عليه كردّ غيره، إذ كان الشاهد فيه من الله سبحانه أقوى وأعلى من الشاهد في غيره، ولما هو إلى التوفيق والعصمة أقربُ مما سواه من الفقراء.

حدثني بعض إخواني: أنّ فقيرًا بمكة ردَّ على بعض الأغنياء معروفه، فأخذ يبكي. فقيل له [في ذلك]، فقال: أليس هذا عملي قد رُدَّ عليَّ؟ قيل له: فإن غيره يقبله. فقال: من أين لي مثل هذه العين؟ وهذا كما قال؛ لأن المؤمنَ ينظر بعين اليقين ونور الله تعالى، فردُّه عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود:١٧]. والجاهل يتصرف بهواه عن نفسٍ فردُّه كقبوله، لأنه يأخذه لنفسه، ويردّ بنفسٍ، والعارف إن أخذ فَبِربٍّ، وإن ردَّ فعن ربٍّ تعالى.

وليزدد فى عينه مَنْ قَبِلَ منه معروفه نبلاً وجلالة، ويعظُم فى عينه محبةً ومهابةً؛ لأنه قد أعانه على برِّه وتقواه، وأكرمه بقبول جدواه، فليشهد ذلك نعمةً من الله تعالى وإحسانًا منه إليه. وعلى العبد أن يجتهد فى طلب الأتقياء وذوى الحاجة من الفقراء، ويبلغ غاية علمه بذلك، فإن قَصُر علمه ولم تنفذ فراسته ومعرفته فى الخصوص، استعان بعلم من هو أعلم منه، وأنفذ نظرًا، أو أعرف وأعلم بالصالحين وأهل الخير منه، ممَّن يُوثق بدينه وأمانته من علماء الآخرة، لا من عُلماء الدنيا.

وعُلماءُ الآخرة همُ الزاهدون فى الدنيا، الورعون عن التكاثر منها، فإن حبَّ الدنيا غامضٌ، قد هلك فيه خلقٌ كثير، لم ينج من العلماء ولم يسلم من الدنيا إلا المتحققون بالعلم واليقين؛ وهم المتقللون من الدّنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥] أى يقينًا، يعنى أنهم يتثبتون فى صدقاتهم أن لا يضعوها إلا فى يقينٍ، يستروح إليه القلب وتطمئن به النفس.

وقد كان بعض العلماء يؤثر بالعطاء فقراءَ الصوفية دون غيرهم. فقيل له: لو عمَّمت بمعروفك جميع الفقراء؟ فقال: لا أفعل، بل أؤثر هؤلاء على غيرهم. قيل: ولم؟ قال: لأن هؤلاء قومٌ هَمُّهم الله سبحانه وتعالى، فإذا طرقتهم فاقةٌ تشتَّت همُّ أحدهم، فلأن أردَّ همَّةَ واحد إلى الله تعالى أحبُّ إلىَّ من أن أعطى ألفًا من غيرهم ممن همه الدنيا. فذُكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد فاستحسنه، وقال: هذا كلامُ ولىٍّ من أولياء الله تعالى. ثم قال: ما سمعت منذ زمان كلامًا أحسن من هذا. وبلغنى أن هذا الرجل اختلّ حاله فى أمر الدنيا، حتى همَّ بترك الحانوت، فوجّه إليه الجنيد بمالٍ كان صُرف إليه، فقال: اجعل هذا فى بضاعتك ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضرّ مثلك. ويقال: إن هذا الرجل كان بَقّالاً، ولم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه.

وأما ابن المبارك رحمه الله تعالى، فإنه كان يجعل معروفه فى أهل العلم خاصة، فقيل له: لو عمّمت به غيرهم، فقال: إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء. فإذا اشتغل قلبُ العالِمِ بالحاجة أو العَيْلةِ لم يتفرغ للعلم،

ولا يُقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم، لتفرُغ قلوبهم للعلم، ويتشطوا لتعليم الناس.

هذه طرائق السلف الصالح. والتوفيق من الله تعالى للعبد في وضع صدقته في الأفضل، كالتوفيق منه في إطعام الحلال الذي في غيبه يوفقه لأوليائه، ويستخرجه لهم من علمه كيف شاء بقدرته.

❊ ❊ ❊

كتاب الصيام

شرح رابع ما بنى الإسلام عليه، وهو الصيام[1]

• ذكر فرائض الصيام:

اعتقاد الصوم إيجابًا لله تعالى عليه وقربةً منه إليه، وإخلاصًا به له، وسقوطُ فرضٍ عنه. وأن يجتنبَ الأكلَ والشُّربَ والجِماعَ بعد طُلوع الفجر الثانى. وأن يتمَّ الصيامَ إلى سقوط قُرص الشمس. وأن لا ينوى فى تضاعيف النّهار الخروجَ من الصوم.

• ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين:

صومُ الخصوص حفظ الجوارح الست: غضُّ البصر عن الاتساع فى النظر. وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو وِزْر، أو القعود مع أهل الباطل. وحفظُ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة؛ مما إن كُتب عنه كان عليه، وإن حُفظ له لم يكن له. ومراعاة القلب بعكوف الهمّ عليه. وقطع الخواطر والأفكار التى كفَّ عن فعلها. وتركُ التمنى الذى لا يُجدى. وكفُّ اليد عن البطش إلى محرَّم من مكسب أو فاحشةٍ، وحبسُ الرِّجل عن السعى فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من غير أعمال البر.

فمن صام تطوعًا بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتين: الأكل والشرب، والجماع؛ فهو عند الله تعالى من الصائمين فى الفضل؛ لأنه من الموقنين الحافظين للحدود. ومن أفطرَ بهذه السّت أو ببعضها وصام بجارحتى: البطن والفرج، فما ضيَّع أكثر مما حَفظ؛ فهذا مفطرٌ عند العلماء صائمٌ عند نفسه. وقد قال أبو الدرداء: أيا حبذا نومُ الأكياس، كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم، ولَذرّةٌ من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادةً من المغترين.

---

(١) من هنا تبدأ نسخة (هـ) بخط قديم جداً أقدم مما مرّ منها، وهو أدق وأتم مما كانت عليه أول النسخة، وبها زيادات، راجع وصفها فى المقدمة.

ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر مثل من مسح كلَّ عضو، فصلاته مردودةٌ عليه لجهله.

ومثل من أفطر بالأكل والجماع، وصام بجوارحه عن النهى، مثل من غسل كلَّ عضوٍ مرة واحدةً وصلى، فهو تاركٌ للفضل فى العدد، إلا أنه مكمل للرضى بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل، وهو مفطر للسَّعة، صائم فى الفضل.

ومثل من صام من الأكل والجماع، وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثًا ثلاثًا، فقد جمع الفرض والفضل، وأكمل الأمرَ والنَّدب؛ فهو من المحسنين، وعند العلماء من الصائمين. وهذا صوم الممدوحين فى الكتاب، الموصوفين بالذكرى من أولى الألباب.

ومن فضائل الصوم: أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشّبهات من الأشياء، وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلالٍ متقلِّلاً منه، فبذلك يزكو الصيام.

ولا يقبّل امرأته فى صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه ينقصه، وتركه أفضل، إلا لقوىٍّ متمكن مالكٍ لإربه. وليقلَّ نومه بالنهار، ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجدَ مسَّ جوعِهِ وعطشه. وقد كانوا يتسحرون بالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب، والجرعة من الماء. ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماسًا لبركة السّحور. وليكثر ذكرَ الله تعالى، وليقلّل ذكر الخلقِ بلسانه، ويُسقط الاهتمامَ بهم عن قلبه؛ فذلك أزكى لصومه. ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شُتم أو ضُرب لم يكافئ على ذلك، لأجل حرمة الصوم. ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال: إن الصائم إذا اهتمَّ بعشائه قبل محل وقته أو من أول النهار كُتب عليه خطيئةٌ. وليرض باليسير مما قُسم له أن ينظر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيرًا عليه.

ومن فضائل الصيام: التقللُ من الطعام والشّراب، وتعجيل الفطر، وتأخير السحور، وليفطر على رُطب إن كان، وإلاّ على تمر إن وُجد فإنه بركة، أو على

شربةٍ من ماءٍ فإنه طهور، هكذا روى عن رسول الله ﷺ: يفطر على جرعة من ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات، قبل أن يصلى. وفى الخبر: «كم من صائم حظُّه من صيامه الجوعُ والعطش». قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على حرام. وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر بالغيبة من لحوم الناس. وقيل: هو الذى لا يَغُضُّ بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام.

ويقال: إن العبدَ إذا كذَب، أو اغتاب، أو سعَى فى معصية فى ساعةٍ من صومه، خرقَ صومه. وإن صومَ يوم يُلْفَق له فى صيام أيام حتى يتمَّ بها صوم يومٍ ساعةً ساعةً. وفى الحديث: «الصوم جُنَّةٌ ما لم يَخرقها بكذِب أو غيبةٍ». وكانوا يقولون: الغيبة تُفطر الصائم.

وقد كانوا يتوضؤون من أذى المسلم. وروى عن جماعة فى الوضوء مما مسّت النار: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحبُّ إلىَّ من أن أتوضأ من طعام طيِّب.

وروى عن بشر بن الحارث عن سفيان: من اغتاب فسد صومه. وروينا عن ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصوم: الغيبة والكذب.

وروى عن جابر عن رسول الله ﷺ: «خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنّميمة، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة».

ويقال: إن من الناس من يكمل له صوم رمضان واحد فى عشر رمضانات، وفى عشرين، مثل سائر الفرائض؛ من الصلاة والزكاة التى يُحاسب عليها العبد. فإن وُجدت كاملة وإلا تُمِّمت من سائر تطوعه. ويقال: إن العبد يصح له صوم يوم فى خمسة أيام، كما يصح له صلاة واحدة بخمس صلوات ترفع له الأوقات. وفى الخبر: «من اغتاب خرق صومه، فليرقع صومه بالاستغفار».

ويقال: إن الله تعالى لم يفترض شيئًا فرضِى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه، ويحاسب على ما أوجبه، وعفو الله سبحانه وتعالى يأتى على كثير من الذنوب.

والمرادُ من الصيام مجانبةُ الآثام، لا الجوع والعطش، كما ذكرنا من أمر الصلاة أن المرادَ بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. كما قال رسول الله ﷺ: «من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَع طعامه وشرابه».

كتاب الحج

شرح خامس ما بنى الإسلام عليه، وهو الحج

• ذكر فرائض الحج:

بالحج كمال الشريعة وتمام الملة، قال الله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران:٩٧]. وفسّر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزّاد والراحلة. فإذا وجد العبد زادًا وراحلة لزمه فرض الحج، فإن أخّره بعد وجود ذلك كان مكروهًا، فإن مات ولم يحج، أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده، كان عاصيًا لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته، ولم يكن كامل الإسلام؛ لأنّ الله تعالى أكمل الإسلام بالحج لما أنزل هذه الآية في الحج يوم عرفة: ﴿اليَومَ أَكمَلْتَ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِينًا﴾ [المائدة ٣]. وفي الخبر: «من لم يمنعه من الحجّ مرضٌ قاطع أو سلطان جائر، ومات ولم يحج، فلا يبالي مات يهوديًا أو نصرانيًا».

وقال عمر: لقد هممتُ أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحجّ ممن يستطيع إليه سبيلاً. وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس: لو علمتُ رجلاً غنيًا وجبَ عليه الحجّ، ثم مات قبل أن يحج، ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسرٌ فمات قبل أن يحجّ، فلم يصل عليه.

وكان ابن عباس يقول: من ماتَ ولم يزكّ ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا. وكان يفسره في هذه الآية قال: ﴿رَبِّ ارجِعُونِ * لَعَلِّي أَعمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكتُ﴾ [المؤمنون:٩٩ ـ ١٠٠]، قال: أحجّ. ومثله يقول: ﴿رَبِّ لَولاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠]، قال: أزكّى وأحجّ. وكان يقول: هذه الآية أشدّ شيء على أهل التوحيد.

ومن كان ذا قوةٍ على المشي، أو ممن يصلح له أن يؤجّر نفسه، وأمِنَ التهلكة

فى خروجه، فحجّ على ذلك كان فاضلاً فى فعله. وللحاج الماشى بكل قدمٍ يخطوها سبعمائة حسنة، وللراكب بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة، والقوة على المشى من الاستطاعة عند بعض العلماء.

فأما فرائض الحج عند جملة العلماء فستة، اختلفوا منها فى ثلاث وهن: السعى، والبيتوتة بمزدلفة عند المشعر ليلة النحر، ورمى جمرة العقبة يوم النحر. وأجمعوا على ثلاث وهنّ: الإحرام به، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة. ولم يختلفوا فى أنّ ما سوى هذه سنَّة واستحباب.

ومذهبى فى هذا ـ وهو مذهب الأكثر من العلماء ـ أن فرائض الحج أربعة: أوّلها الإحرام به، والوقوف بعرفة بعد زوال الشمس من يوم عرفة، وآخر حدٌّ الوقوف قبل طلوع الفجر من يوم النحر. وطواف الزيارة بعد الوقوف بعرفة بعد رمى جمرة العقبة، والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج، إن شئت قبل الوقوفة بعرفة، وإن شئت بعده. وما سوى ذلك من المناسك فمَسنون ومستحبٌّ، وبعضه أوكد من بعض، وفى ترك بعضه كفارةٌ، وفى بعضه لا حرج فيه.

وطواف الحج ثلاثة: واحد فريضةٌ إن تركه بطل حجه؛ وهو طواف الزيارة، وواحدٌ سنة إن تركه كان عليه دمٌ وحجّه تامٌّ، وهو طواف الوداع، وواحد مستحب إن تركه فلا شىء عليه، وهو طواف الورود.

ولم نذكر من فرائض الحج وأحكامه وهيئاته فى هذا الباب إلا قوتُ الأعمال، مثل ما ذكرناه فى سائر الأبواب من هذا الكتاب، على ما يليق بيانه للمعنى الذى قصدناه فيه، وقد أشبعنا أحكام الحج وما يقال فى المشاعر فى كتاب «مناسك الحج»[1] المفرد له.

• ذكر فضائل الحج، وآدابه وهيئاته، وفضائل الحجاج، وطريق السلف السالكين للمنهاج:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ﴾ يعنى من أوجبه على نفسه فى هذه الأشهر فأحرم به، وهى: شوال، وذو القعدة،

(١) يشير أبو طالب إلى كتاب له عن الحج لم تذكره المراجع.

وتسع من ذى الحجة ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِى الحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] الرفث: اسم جامع لكل لغوٍ وخنى، وفجور من الكلام، ومغازلة النساء ومداعبتهن، والتحدث فى شأن الجماع. والفسوق: جمع فسق، وهو اسم جامعٌ لكل خروج من طاعة، ولكل تعدى حدٍّ من حدود الله تعالى. والجدال: وصف مبالغة للخصومة والمراء، فيما يُورث الضغائن وفيما لانفع فيه. فهذه ثلاثة أسماء جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة، أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها؛ لأنها مشتملة على الآثام، وهنّ أصول الخطايا والإجرام.

والحجُّ فى اللغة هو القصد إلى من يُعظَّم. وكانت العرب تقول: نحجّ إلى النعمان، أى نقصده تعظيمًا له وتعزيزًا. فينبغى أن يكون الحاج معظِّمًا لمن قصده بالحج، ليتحقق بمعنى هذا الاسم. والحج أيضًا: سلوك الطريق الواضح الذى يخرج إلى البُغية ويُوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة النُّسُك، وهو اسم للطريق مشتقٌّ من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله الذّبح، ومنه سمى الناسك لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأول فضائل الحجِّ: حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالاً، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرّق الهمّ، ويكون الهمُّ مجرَّدًا، والقلب ساكنًا مُطمئنًا مملوءًا بالذكر، فارغًا من الهوى، ناظرًا أمامه غير ملتفت إلى ورائه، وصحةُ القصد بحسن الصدق، ثم طيبُ النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد وبذل ذلك؛ لأن النفقة فى الحجِّ بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى؛ الدّرهم بسبعمائة درهم، والحجُّ من سبيل الله، روى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عمر وغيره: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره. وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقينًا.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر عن رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقال: «سُئل رسول الله ﷺ: ما برُّ الحج؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام».

ويقال: إنما سمى سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسنت صحبته فى الحضر حسنت صحبته فى السفر، وكل من صَلُح أن يُصحب فى السَّفَر صلُح فى الحضر. وفى خبر عمر رضى الله عنه، لما سأل عن الرجل، مَن ذكر[1] أنه يعرفه، فقال له: هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

ولا يجادل ولا يخاصم، ولا يكثر المراء، ولا يرفث بلسانه. وروينا عن بشر ابن الحارث قال: قال سفيان: من رفث فسد حجه.

وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحجّ وهيئاته وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شىء إليه وليقدمه على جميع أسباب السفر، فإن هذا هو المقصود والبغية فلا يُباين عنه، وليعدّ له رفيقًا صالحًا عالمًا محبًا للخير معينًا عليه، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإن جبُن شجعه، وإن عجز قَوَّاه، وإن أساء ظنه وضاق صدره وسَّع صدره وصبَّره وحسَّن ظنه، ولا يخالف رفيقه ولا يكثر الاعتراض عليه، وليحسِّن خُلقه مع جميع الناس، وليلِّين جانبه، ويخفِّض جناحه، ويكف أذاه عن الخلق، ويحتمل أذاهم. فبهذه المعانى يفضل الحج.

وأن يحج على رَحلٍ أو زاملةٍ، فإن ذلك حَجُّ المتقين وطريق الماضين. يقال: حج الأبرار على الرِّحال. وحدث سفيان الثورى عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحجّ، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجَوالقاتٍ ورواحل، وما رأيت فى جميعهم إلا مُحَمَّلِينَ.

وقال مجاهد لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج؟ فقال: ما أقلّهم، ولكن قل: ما أكثر الرَّكب. قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أُحدث من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل، والرَّكب كثير. ثم نظر إلى رجل مسكين رثّ الهيئة، تحته جوالق، فقال: هذا نِعمَ الحاج.

(١) من قوله: «وكل من صلح» إلى هنا من (د، م).

فينبغى أن يكون الحاج رثَّ الهيئة، خفيف المؤونة، متقلِّلاً من كل شىء، لا يحمل معه من الزاد إلا ما لا بد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف فى المبالغة والتناهى فيه، ولا يقتِّر، ولا يضيِّق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصاد فى كل شىء والكفاية، ويجتنب من الزىِّ الحُمرة فإن ذلك مكروه.

وروى عن النبى ﷺ «أنه كان فى سفر، فنزل أصحابه منزلاً، فسُرحت الإبل، فنظر إلى أكسية حُمر على الأقتاب، فقال: أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم. قال: فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل».

ثم ليجتنب من الزى الشهرة، وكلَّ منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبَّه بالمترفين، ولا بأهل الدنيا من أهل التفاخر والتكاثر فيُكتب من المتكثرين، ولا يكثر التنعُّم والرفاهة، فإن ذلك غير مستحب فى سبيل الله تعالى؛ لأن المشقة والظمأ والمخمصة واللأواء كلّما كثر فى سبيل الله كان أفضل وأثوب.

حج رسول الله ﷺ على راحلة، وكان تحته رَحْلٌ رثٌّ وقطيفة خَلِقة قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إليه، ويهتدوا بشمائله. وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عنى مناسككم». وكان يقول: «لبيك اللهم لبيك، حجًا لا رياء فيه ولا سمعة». وقال: «لبيك، إن العيش عيش الآخرة». وأمر ﷺ بالشَّعَث والاحتفاء، ونهى عن التنعم والرفاهة، فى حديث فضالة بن عبيد. وفى الخبر: «إنما الحاج الشَّعَث التَّفلُ. يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوّار بيتى قد جاؤونى شُعثًا غبرًا من كل فج عميق». وقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]. التفث: الشَّعَث والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقصّ الأظفار.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا. أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة من الأشياء. وبعض أصحاب الحديث يصحّف هذا الحرف فيقول: احلولقوا، من الحلق، ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سنَّة، كيف وقد قال لضبيع حين توسَّم فيه مذهب الخوارج: اكشف رأسك، فرآه ذا ضفيرتين،

فقال: لو كنت محلوقًا لضربت عنقك.

ولْيَنحُ مِثالَ أهل اليمن في الزى والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتباع لشمائلهم في الحج طريقة السلف. على ذلك الهدى والوصف كان رسول الله ﷺ وأصحابه، وما عدا وصفهم وخالف هديهم فهو محدَثٌ ومتبدَع.

ولهذا المعنى قيل: زينُ الحجيج أهل اليمن؛ لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف. وقيل في مدحهم بالتقلل والانفراد: لا يغلون سعرًا ولا يضيقون طريقًا.

وقد كان العلماء قديمًا إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة، يقولون: لا تقولوا خرج فلانٌ حاجًا، ولكن قولوا: خرج مسافرًا. ويقال: إنّ هذه المحامل والقباب أحدثها الحجّاج بن يوسف فركب الناسُ سنّته. وقد كان العلماء في وقته ينكرونها، ويكرهون الركوب فيها. وأخاف أن بعض ما يكون من تماوُت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يُحمل، ولعله عِدلُ أربعة أنفس وزيادة، مع طول الشُّقة وقلة الطعم.

وينبغي أن يقلّل من نومه على الدابة، فإنه يقال: إن النائم يُثقل على البعير. وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا من قعود، يغفون غفوة بعد غفوة. وكانوا أيضًا لا يقفون عليها الوقوف الطويل؛ لأن ذلك يشق عليها. وفي الحديث: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي».

ولا يحمل على الدابة المكتراة إلا ما قاضى عليه الجمّال أو ما أذن له فيه. قال رجل لابن المبارك: احمل لي هذا الكتاب معك. فقال: حتى استأمر الجمّال، فإني قد اكتريت. ولينزل عن دابته غدوةً وعشيَّة، يروِّحها بذلك، ففيه سنةٌ وآثار عن السلف. وقد كان بعض السلف يكترى لازمًا، ويشترط أن لا ينزل، ثم إنه ينزل للرواح ليكون ما رفَّه عن الدابة من حسناته محتسبًا له في ميزانه.

وبعض علماء الظاهر يقول: إن الحجَّ راكبًا أفضل؛ لما فيه من الإنفاق والمؤونة، ولأنه أبعد لضجر النفس، وأقلُّ لأذاه، وأقرب لسلامته وتمام حجه. فهذا عندي بمنزلة الإفطار يكون أفضل إذا ساء عليه خلقه، وضاق به ذرعه، وكثر عليه

ضجره، لأن حسن الخلق وانشراح الصدر أفضل. وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعضٍ، ممن يكون حاله الضجر، ووصفه التسَخُّط وقلّة الصبر، أو لم يكن اعتاد المشى.

وسألت بعض فقهائنا بمكة ـ وكان ورعًا ـ عن تلك العُمَر التى تُعتمر من مكة إلى التنعيم، وهو الذى يقال له مسجد عائشة، وهو ميقاتنا للعمرة فى طول السنة، أى ذلك أفضل المشى فى العمرة، أو يكترى حمارًا بكسر درهم إلى درهم يعتمر عليه، فيقال: يختلف ذلك على قدر شدّته على الناس، فإن كان إنفاق الدرهم أشدّ عليه من المشى فالاكتراء أفضل، لما فيه من إكراه النفس عليه وشدّته عليها. ومن كان المشى عليه أشق فالمشى أفضل، لما فيه من المشقة. ثم قال: هذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة، فيكون المشى عليهما أشد.

وعندى أن الاعتمار ماشيًا أفضل، وكذلك الحج ماشيًا، لمن أطاق المشى، ولم يتضجر به، وكان له همّة وقلب. وقد روينا فى خبر من طريق أهل البيت: «إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقُرَّاؤهم للسُّمعة.

ويكره أخذ الأجرة على الحجّ، فيجعل نصيبه وعناه لغيره ملتمسًا عرض الدنيا. وقد كره ذلك بعض العلماء. ولأنه من أعمال الآخرة، ويُتقرَّب به إلى الله، يجرى مجرى الصلاة والأذان والجهاد، فلا يأخذ على ذلك أجرًا إلا فى الآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبى العاص: «واتخذ مؤذنًا لا يأخذ على الأذان أجرًا». وسئل عن رجل خرج مجاهدًا فأخذ ثلاثة دنانير، فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلاّ ما أخذ. فإن كان نية عبد الآخرة أو همته المجاورة، واضطر إلى ذلك، فإنّ الله تعالى قد يعطى الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا، رجوتُ أن يسعه ذلك، وفى الخبر: «يؤجر فى الحجة الواحدة ثلاثة، ويدخلون الجنة: الموصى بها، والمنفّذ للوصية، والحاجّ الذى يقيمها» لأنه ينوى خلاص أخيه المسلم، والقيام بفرضه. وقد جاء: مَثَلُ المجاهد الذى يأخذ أجرًا على جهادِه مثل

أمّ موسى يحل أجرها وترضع ولدها. هذا إذا كانت نيته الجهاد، واحتاج إلى معونة عليه. كذلك من كانت نيته في حجه الآخرة، والتقرّب إلى الله تعالى بالطواف والعمرة بعد قضاء ما عليه، لم يضره أخذ أجرةٍ على حجه إن شاء الله تعالى.

ومن فضائل الحجّ: أن لا يقوّى أعداءَ الله الصَّادّين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهي المعونة بالنفس. والصدُّ عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فليَحتَلْ في التخلص من ذلك، فإن بعض علمائنا كان يقول: تركُ التنفُّل بالحج والرجوع عنه أفضل من تقوية الظالمين بالمال؛ لأن ذلك عنده دخيلةٌ في الدين، ووليجةٌ في طريق المؤمنين، وإقامة وإظهار لبدعةٍ أُحدثت من الآخذ والمعطي، فهما شريكان في الإثم والعدوان. وهذا كما قال؛ لأنه جعل بدعة سنة، ودخولاً في صَغارٍ وذِلَّة، ومعاونةٌ على وزر أعظم في الحَرَم من تكلّف حجٍّ نافلة قد سقط فرضه. كيف وفي ذلك إدخال ذِلةٍ وصَغار على الإسلام والمسلمين مضاهاةً للجزية؟ وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإن ترك المسلمون فاشدد لئلا يُؤتَى الإسلام من قِبَلِك». وفي الخبر المشهور: «المسلمون كرجل واحد، ومَثَل المسلم من المسلمين كمَثَل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد».

وقد يترخص القائل في ذلك بتأويل أنه مضطر إليه. وليس كما يظن، لأنه لو رجع لَمَا أُخذ منه شيء، ولو خرج في غير زي المترفين مما أحدث من المحامل لما أخذ منه شيء، فقد زال الاضطرار وحصل منه بالطوع والشهوة الاختيار، ولعل هذا الذنب عقوبة ما حمَّلوا على الإبل فوق طاقتها من البيوت المسقَفة التي علوها عليها. كان البعير يحمل الرجل ورَحلَه فجعلوه يحمل مقدار أربعة وزيادة، فأدى ذلك إلى تلفها، فهم مطالبون بقتلها؛ لأن من حمَّل بعيراً فوق طوقه حوسب بذلك وطولب، أو لعله ذنب ما خرجوا به من التجارات وفضول الأسباب وشبهات الأموال، أو لسوء النيات وفساد المقاصد. وروينا أن أبا الدرداء قال لبعير له في الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربّك فإنّي لم أكن أحمِّلك فوق

طاقتك. وقد يعاقب الله على الذنب بذنب مثله أو فوقه.

وينبغى أن يكون فى المشاعر والمناسك أشعث أغبر، فإنه سُنَّة. ويكثر ذكرَ الله فى طريقه وجميع مناسكه، ويذكّر به الغافلين، ويُقل ذكر الناس، ويلزم الصمت فيما لا يعنيه، ولا يتكلف ما قد كُفى، ولا يدخل فيما لم يكلَّف، وإن رأى موضعًا للمعروف أمر به، أو منكرًا نهى عنه. فهذه المعانى تضاعف أجر الحج، وتفضل الحجاج.

وأستَحِب أن يَقرِنَ بين حجة وعُمرة من ميقاته؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعًا بين نُسُكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعًا بين نسكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأنها مقرونة بالحجّ فى الكتاب، ولأن مذهبَ كثير من العلماء أنها فريضة كالحجّ. وجماعة من السلف كانوا يستحبّون الابتداء بالعمرة وتقديمها على الحجّ، منهم: الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعى.

وقد روى أن النبى ﷺ جمع بينهما، وأهلَّ بهما معًا فى حديث أنس. وقد حُدِّثت عن شقيق بن سلمة عن الضبى بن معبد قال: أردتُ العُمرةَ فأشار علىَّ رجل من أهل العلم أن أبدأ بالحج، فاستشرت رجلاً من أهل الفقه فأمرنى أن أجمع بين حجّ وعمرة جميعًا. ففعلتُ، فأنشأتُ أُلَبِّى بهما، حتى قدمنا على عمر فأخبرته بالذى فعلتُ. فقال: هُديتَ لسنة نبيك.

وإن قدَّمَ العمرة فحجّ متمتعًا ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل؛ وهذا اختيار جماعة من العلماء. وإن حجّ مُفرِدًا، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه أفرد الحجّ فيما روينا عن عائشة وجابر، وإذا فرغ من حجه رجَع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك، فحَسَنٌ. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله﴾ [البقرة:١٩٦]، فإفرادهما من إتمامهما؛ وهذا قول عمر وعثمان فى الإتمام.

وليطف لِقرانه وسَعْيَ طوافين وسَعْيَيْن، ليخرج بذلك من اختلاف العلماء، جمعهما أو فرَّقهما.

وليكثر العبد من التلبية فى حال إحرامه، فهى من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته، وإن قال فى تلبيته: لبيك يا ذا المعارج، لبيك حجًا حقًا، تعبّدًا ورِقًا، والرغباء إليك والعمل. فقد رُوى هذا عن الصحابة. وإن اقتصر على تلبية رسول الله ﷺ فحسن، وفيها كِفاية وبلاغ.

وأحبّ أن يذبح، وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل مما يذبح ما كان واجبًا عليه مثل نُسك قِران، أو متعة، أو كفَّارة. وأستحب أن يأكل مما لم يكن عليه واجبًا. وليجتنب المعايب الثمانية فى ذبيحته التى وردت بها الآثار، فقد نُهى أن يضحى: بالجدعاء، والعضباء، والجرباء، ونهى عن الشرقاء، والخرقاء، والمقابلة، والمدابرة، والعجفاء التى لا تُنقى، يعنى المهزولة. وهذا جميع ما جاء فى عيوب الأضاحى بأخبار متفرقة.

فالجدع: فى الأنف والأذن. والقطع: فيهما. والعضب: الكسر فى القرن، وفى نقصان القوائم. والجرباء: من الجرب. والشرقاء: المشقوقة الأذن من فوق. والخرقاء: المشقوقة من أسفل. والمقابلة: المخروقة الأذن من قدام. والمدابرة: المخروقة من خلف. والتى لا تُنقى: المهزولة التى لا نِقْىَ لها؛ والنِّقْى هو المخ.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، قيل: تسمين الهدى وتحسينه. وأفضل الهدى بدنةٌ، ثم بقرةٌ، ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثَّنِىُّ من المعز.

وإن ساق هديه من الميقات فهو أفضل من حيث لا يجهده ولا يكدُّه، وقد كانوا يُغالون بثلاث، ويكرهون المِكَاس فيهن: الهدى، والأضحية، والرقبة. فإن أفضل ذلك أعلاه ثمنًا، وأنفسه عند أهله. وفى حديث ابن عمر أن عمر أهدى نجيبة، فطُلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بُدنًا، فنهاه عن ذلك وقال: بل اهدها. فهذه سنة فى تخيُّر الهدى، وحسن الأدب فى المعاملة، وترك الاستبدال بها طلبًا للكثرة، لأن القليل الجيد خيرٌ من الكثير الدون. إن فى ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين، فكان الخالص الحسن كافيًا من الكثير المتقارب.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر: «سئل رسول الله ﷺ: ما بِرُّ الحج؟ قال: العَجُّ والثجُّ». فالعج: هو رفع الصوت بالتلبية، والثج: هو نحر البُدن.

وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ: «ما عمل آدمى يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله عز وجل من إهراق دم، وأنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدّمَ ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفسًا».

وفى الخبر: «له بكل صوفة من شعرها وبكل قطرة من دمها حسنة»، وأنها لتوضع فى الميزان فأبشروا.

ولا يضحى بجَذَع إلا من الضأن فقط، وهو ما كان فى آخر حَوْلِه، وبالثَّنِىِّ من المعز والبقر والإبل. فالثنى من المعز: ما دخل فى السنة الثانية، والثنى من البقر: ما دخل فى الثالثة، والثنى من الإبل: ما دخل فى السنة الخامسة.

وإن أحرم من بلده، فقد قيل: إنه من إتمام الحج والعمرة، ومن عزائم الأعمال. روينا عن عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم: ﴿**وَأَتِمُّوا الحجَّ والعُمْرَةَ لله**﴾ [البقرة:١٩٦]. قالوا: إتمامهما أن تحرم بهما من دُويرة أهلك. ولتكن حاضرَ القلب، مشاهدًا القرب عند المواطن المرجوِّ فيها الإجابة. وفى المشاهد المبتغَى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فى أَيَّامٍ مَعدُوداتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم**﴾ [الحج:٢٨].

وأستحبّ له أن يمشى فى المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة، وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى منى. ومن استحب للحاجّ الركوب فإنه يستحب له المشى إلى مكة فى المناسك إلى انقضاء حجّه، ولأن عبد الله بن عباس أوصى بنيه عند موته فقال: يا بنى حُجوا مشاةً، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف. وأوكد ما مشى فيه من المناسك وأفضله: من مسجد إبراهيم ﷺ إلى الموقف، ومن الموقف إلى المزدلفة فى الإفاضة، ومن المشعر الحرام غداة النّحر إلى مِنًى، وفى أيام رميهِ الجمار.

وصوم يوم عرفة فيه فضل إن قوى معه على الدعاء والتلبية، ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإن أضعفه فالفطر أفضل. ولم يصمه رسول الله ﷺ بعرفة، ولا أبو بكر، ولا عمر، وصامه عثمان رضى الله عنه وعنهم.

وليعتبر فى طريقه وسيره بالآيات وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق، وما يحدث الله تبارك وتعالى فى كل وقت، فيكون له فى كل شىء عبرة، ومن كل شىء موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة. وليكن له بكل شىء تَذْكِرة، وفى كل شىء فِطنةٌ وتَبصِرة، تردّه إلى الله تعالى، وتدلّه عليه، وتذكِّره به، ويشهده منها فيتفكر فى أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته.

وسئل الحسن: ما علامة الحج المبرور؟ فقال: أن يرجع العبدُ زاهدًا فى الدنيا، راغبًا فى الآخرة. وقيل فى وصف الحج المبرور: هو كفُّ الأذى، واحتمال الأذى، وحسن الصحبة، وبذل الزاد. ويقال: إنّ علامة قبول الحج: تركُ ما كان عليه العبد من المعاصى، والاستبدال بإخوانه البطَّالين إخوانًا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة. فمن وُفِّق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

ومن أُصيب بمصيبةٍ فى نفسه وماله، فهو من دلائل قبول حَجِّه، فإن المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله تعالى، الدِّرهم بسبعمائة، وبمثابة الشدائد فى طريق الجهاد.

وليستكثر من الطواف بالبيت؛ فإنه يقال: ليس على وجه الأرض اليوم عمل أفضل من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع[1] مائةً وعشرين رحمة، يكون بكل رحمة ما شاء الله؛ لأنه سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأقلُّ ماله بكل رحمة عشر حسنات؛ لأن فى حديث عطاء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «يُنزل الله على هذا البيت فى كلِّ يوم مائة وعشرين رحمة، ستّون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين». وفى الحديث: «استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أقلِّ شىء تجدونه فى صُحفكم يوم القيامة، وأغبطُ عَمَلٍ

(١) أسبوع: يقال: طاف بالبيت سَبْعًا وأسبوعًا وسبوعًا؛ بمعنى واحد.

تجدونه». ولا تتحدث فى طوافك، وعليك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد وتلاوة القرآن، وامشِ بسكينة ووقار وخشوع وانكسار، ولا تزاحمنَّ أحدًا، واقرب من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين، مع تقبيل الحجر فى كل وتر من طوافك إن أمكن. وقد روينا فى الخبر: «من طاف بالبيت أسبوعًا حافيًا حاسرًا كان له كعتق رقبة. ومن طاف باليت أسبوعًا فى المطر غُفر له ما سلف من ذنوبه». روى ذلك عن الحسن بن على، قاله لأصحابه ورفعه إلى رسول الله ﷺ.

واتق الهِمَمَ الرديَّة والأفكار الدنيَّة. فيقال: إن العبد يؤاخذ بالهمة فى ذلك البلد. وعن ابن مسعود: ما من بلد يُؤاخَذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلاّ بمكة. وقال أيضًا: لو همّ العبد بعَدن إبين أن يعمل سوءًا بمكة عاقبه الله تعالى، ثم تلا: ﴿وَمَن يُرِد فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] يعنى أنه علّق العذاب بالإرادة دون الفعل. ويقال: إن السيئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وإن السيئات التى تُكتسب هنالك لا تكفَّر إلا هنالك. وكان ابن عباس يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم. وقيل: الكذب فيه من الإلحاد.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لأن أُذنب سبعين ذنبًا بركِيَّة أحب إلىّ من أن أذنب ذنبًا واحدًا بمكة. وركية منزلة بين مكة والطائف.

وقد كان الورعون من السلف، منهم عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما، يضرب أحدُهم فسطاطين؛ فسطاطًا فى الحرم وفسطاطًا فى الحِلِّ. فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئًا من الطاعات دخل فسطاط الحرم، ليدرك فضل المسجد الحرام، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر إنّما هو الحرم كله، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوَّط خرج إلى فسطاط الحل.

ويقال: إن آل الحجاج فى سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذى طِوى تعظيمًا للحرم. وقد سمعنا من لم يكن يتغوط ولا يبول فى الحرم من المقيمين بمكة، ورأينا بعضهم لا يتغوَّط ولا يبول حتى يخرج إلى الحِلِّ، تعظيمًا لشعائر الله تعالى، وتنزيهًا لحرمه وأمنه.

وأعمال البرِّ كلُّها تُضاعَف بمكة، والحسنة بمائة ألف حسنة، على مثال الصلاة فى المسجد الحرام. روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس. وعن الحسن البصرى: أن صوم يوم بمائة ألف يوم، وصدقة درهم بمائة ألف درهم. ويقال: إن طواف سبعة أسابيع يعدل عُمرة، وإن ثلاث عُمَر تَعدل حجّة، وإن العمرة هى الحجة الصغرى؛ وهذا فى دليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ [التوبة:٣] فدل أن الحجَّ الأصغر هو العمرة، ومن العرب من يسمى العُمرة حجًا. وفى الخبر: «عُمرةٌ فى رمَضان تعدل حجة». فمن وُفِّق للعمل بما ذكرناه، فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

• ذكر فضائل الحاجين لوجه الله:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حجّ هذا البيتَ فلم يرفُث ولم يفسُق خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وفى حديث آخر: «من خرج من بيته حاجًا أو مُعتمرًا فمات أُجرى له أجرُ الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين لم يُعرَض ولم يُحاسَب، وقيل له ادخل الجنة». وروى فى الخبر: «حجةٌ مبرورة خيرٌ من الدنيا وما فيها. وحجةٌ مبرورة ليس لها جزاءٌ إلا الجنة».

وفى الحديث: «الحجاج والعُمَّار وفدُ الله تعالى وزُوَّاره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غَفَر لهم، وإن دَعَوه أُستُجيب لهم، وإن شفعوا شُفِّعوا».

وذكر بعضهم أن إبليس ظهر له فى صورة شخص بعرفة، فإذا هو ناحل الجسم، مصفرُّ اللون، باكى العين ، مقصوم الظهر، فقال له: ما الذى أبكى عينك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول: قد قصدوه، أخاف أن لا يخيِّبهم، فيحزننى ذلك. قال: فما الذى أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل فى سبيل الله تعالى، ولو كانت فى سبيلى كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى غيّر لونك؟ قال: تعاونُ الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى قصَم ظهرك؟ قال: قول العبد: أسألك حُسنَ الخاتمة، أقول: يا ويلتى متى يعجب هذا بعمله؟ أخاف أن يكون قد فطن.

ولقى رجلٌ ابن المبارك وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة، فقال: من أعظم الناس جُرمًا يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت؟ فقال: من قال إن الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء.

وقد روينا حديثًا مسندًا من طريق أهل البيت: «أعظم الناس ذنبًا من وقفَ بعرفةَ فظنّ أن الله عز وجل لم يغفر له».

ويقال: إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفِّرها إلاّ الوقوف بعرفة. وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده. ويقال: إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبًا فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف. وزعم بعض السلف: إذا وافق عرفة يوم جمعة غُفر لكل أهل الموقف.

وهو أفضلُ يوم فى الدنيا، وفيه حجَّ رسول الله ﷺ حجةَ الوداع ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها. وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال علماء أهل الكتاب: لو أُنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيدًا. فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أشهد، لقد أُنزلت فى يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة، على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨] عن جماعة من السلف، قال: غفر لهم وربّ الكعبة. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الاعراف:١٦]. قال: طريق مكة يصدهم عنه.

وروينا عن مجاهد وغيره من العلماء، دخل حديث أحدهما فى الآخر: كانوا يتلقون الحاج يدعون لهم قبل أن يتدنسوا ويقولون: تقبل الله منا ومنكم. وأنّ الحاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة، فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقًا.

وقال الحسن: من مات بعقب شهر رمضان، أو بعقب غزوةٍ، أو بعقب حجٍّ، مات شهيدًا.

وقال عمر رضى الله تعالى عنه: الحاج مغفورٌ له ولمن استغفر له شهرَ ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وعشرين من ربيع الأول.

وقد كان من سُنّة السلف أن يشيِّعوا الغُزاة وأن يستقبلوا الحاج، ويقبّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم. وفى الخبر: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج».

وحدثونا عن على بن الموفَّق قال: حججتُ سنة فلما كان ليلة عرفة بتُّ بمنًى فى مسجد الخيف، فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثيابٌ خُضر، فنادى أحدهما صاحبه: يا عُبيد الله. فقال الآخر: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حجّ بيتَ ربِّنا فى هذه السنة؟ قال: لا أدرى. قال: حجّ بيت ربنا ستمائة ألف. أتدرى كم قُبِل منهم؟ قال: لا. قال: قُبل منهم ستة أنفس. قال: ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عنى، فانتبهت فزِعًا فاغتممتُ غمًا شديداً، وأهمَّنى أمرى، فقلتُ: إذا قُبل حجُّ ست أنفس، فأين أكون أنا فى ستة أنفس؟ فلما أفضْنا من عرفةَ، وبتُّ عند المشعر الحرام جعلتُ أفكر فى كثرة الخلق، وفى قلّة من قُبل منهم، فحملنى النوم، فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيئتهما، فنادى أحدهما: يا عبيد الله. قال: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حجّ بيت ربنا؟ قال: نعم، ستمائة ألف. قال: فتدرى كم قُبل منهم؟ قال: نعم، ستة أنفس. قال: أتدرى ماذا حكم ربنا فى هذه الليلة؟ قال: لا. قال: فإنه وهَب لكل واحدٍ من الستة مائة ألف. قال: فانتبهت وبى من السُّرور ما يجلُّ عن الوصف.

ذكر فى هذه القصة ستة، ولم يذكر السابع؛ وهؤلاء هم الأبدال السبعة أوتاد الأرض المنظور إليهم كفاحًا، ثم ينظر إلى قلوب الأولياء من وراء قلوبهم. فأنوار هؤلاء عن نور الجلال وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم. فلم يذكر السابع وهو قطب الأرض، والأبدال كلُّهم فى ميزانه. ويقال: إنه هو الذى يُضاهى الخضر من هذه الأمة فى الحال، ويجاريه فى العلم، وإنهما يتفاوضان العلم، ويجد أحدهما المزيد فى الآخرة، فإنّما لم يُذكر ـ والله أعلم ـ لأنه يُوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاهًا من

جميعهم، وأنفذ قولاً فى الشفاعة من الجملة.

وقد روينا عن ابن الموفَّق قال: حججت سنةً، فلما قضيت مناسكى تفكَّرت فيمن لا يُتقبَّل حجه، فقلت: اللهم إنى قد وهبتُ حِجّتى هذه وجعلت ثوابها لمن لا يُتقبل حجه. قال: فرأيت ربَّ العزة فى النوم، قال لى: يا على تتسخَّى علىَّ، وأنا خلقت السخاء وخلقتُ الأسخياء، وأنا أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأحق بالجود والكرم من العالمين، وقد وهبت كل من لم يُقبل حجه لمن قبلته. وكان ابن الموفق هذا قد حجّ عن رسول الله ﷺ حججًا، وقال: فرأيت النبىَّ ﷺ فقال: يا ابن الموفق، حججتَ عنى؟ قلتُ: نعم يا رسول الله. ولبَّيتَ عنّى؟ قلتُ: نعم. قال: فهذه يدٌ لك عندى أُكافئُكَ بها يوم القيامة، آخذ بيدكَ فى الموقف فأدخلك الجنة، والخلائق فى كُرَب الحساب.

• ذكر فضائل البيت الحرام وما جاء فيه:

فى الخبر: «إن الله تعالى وعد هذا البيت أن يحجّه فى كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كمَّلهم الله تعالى بالملائكة، وأن الكعبة تُحشر كالعَرُوس المزفوف، وكلُّ من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها».

وفى الخبر: «إن الحجرَ ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يُبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وكان رسول الله ﷺ يقبِّله كثيرًا. وروينا أنه سجد عليه، وكان يطوف على الراحلة فيجعل المِحْجَن عليه، ثم يقبّل طرف المحجن.

وقبّله عمر ثم قال: إنّى لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك لما قبّلتك. ثم بكى حتى علا نشيجه، فالتفتَ إلى ورائه فإذا علىٌّ، فقال: يا أبا الحسن، ههنا تُسكب العبرات. فقال على: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع. قال: وكيف؟ قال: إن الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذّرية كتب عليهم كِتابًا، ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء، ويشهد على الكافر بالجحود. قيل: فذلك معنى قول الناس عند الاستلام: اللهم إيمانًا بك، وتصديقًا بكتابك، ووَفَاءً بعهدك. يعنون هذا الكتاب والعهد.

وفى الخبر عن النبى ﷺ: «أنا أوّل من تنشقُّ عنه الأرض، ثم آتى البقيع فيُحشرون معى، ثم آتى أهلَ مكةَ فأُحشر بين الحرمين». وفى الخبر: «إن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: بُرَّ حَجُّك يا آدمُ، لقد حَجَجنا هذا البيت قبلك بألفى عام». وجاء فى الأثر: «إن الله تعالى جدّه ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض، فأول من ينظر إليه أهل الحرم، وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفًا غَفَرَ له، ومن رآه منهم مصليًا غَفَر له، ومن رآه نائمًا مستقبل القبلة غَفَرَ له».

وذكرت الصلاة بعَبَادان لأبى تراب النخشبى فقال: نومةٌ فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة بعبادان. وكُوشف بعض الأولياء قال: رأيتُ الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجَدّة؛ لأنها خِزانةُ الحرم، وفُرضة أهل المسجد الحرام.

وكنتُ أنا بمكة سنةً فأهمنى الغلاءُ بها حتى ضِقت ذرعًا به، فرأيت فى النوم شخصين بين يدىَّ، يقول أحدهما للآخر: كلُّ شىءٍ فى هذا البلد عزيزٌ، كأنه يعنى الغلاء. فقال الآخر: الموضع عزيزٌ فكل شىء فيه عزيز، فإن أردت أن ترخُص الأشياء عليك، فضمَّها إلى شَرَفِ الموضعِ حتى ترخص.

• ذكر من كره المقام بمكة:

كان سفيان الثورى يقول: والله ما أدرى أى البلاد أسكن. فقيل له: خراسان. قال: مذاهبُ مختلفة، وآراء فاسدة. قيل: الشام. قال: يشار إليك بالأصابع. قيل: فالعراق. قال: بلدة الجبابرة. قال: مكة. قال: تُذيب الكِيسةَ والبدن. وقال رجل للثورى: قد عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى. قال: أوصيك بثلاثة؛ لا تصلِّينَّ فى الصف الأول، ولا تصحبنَّ قرشيًا، ولا تُظْهِرنَّ صدقة.

إنما كره له الصلاة فى الصف الأول؛ لأنه يُفتقد فيُسأل عنه إذا غاب، ويُشتهر ويعرف إذا واظَبَ، فيجب أن يَرُبَّ الحال بلزوم الموضع، فيذهب الإخلاص ويحصل التزيُّن والتصنُّع. وجاء رجل إلى سفيان بمكة فسأله فقال: أرسل معى رجلٌ بمال فقال: ضعه فى سِدانة الكعبة ـ أو قال: فى سَدَنَة الكعبة ـ فما ترى؟

قال سفيان: قد جهل فيما أمرك به، وإن الكعبة لَغنيَّة عن ذلك. قال: فما ترى؟ قال: اصرفه للفقراء والأرامل، وإياك وبنى فلان فإنهم سُرَّاق الحاجِّ.

وقد كان بعض السلف يكره المجاورة بمكة ويحبّ قصد البيت للحج والخروج منه، إما لأجل الشّوق إليه، أو خشية الخطايا فيه، أو حبًا للعود. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]، أى: يَثوبُونَ إليه؛ يعودون مرة بعد مرة، ولا يقضون منه وطرًا.

وكان بعضهم يقول: تكون فى بلد وقلبك مشتاق متعلق بهذا البيت خيرٌ لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بمقامك، أو قلبك متعلّق إلى بلد غيره.

وروى ابن عيينة عن الشعبى: لأن أقيمَ بحمَّام أعين أحبُّ إلىَّ من أن أقيم بمكة. قال سفيان يعنى إعظامًا لها وتوقيًا على الذنب فيها. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يضرب الحجاج إذا حجُّوا، ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم.

وكان ابن عباس يقول: أُجورُ بيوت مكة حرام، ولا تقوم الساعة حتى يستحلَّ الناس اثنتين: إتيان النساء فى أدبارهن، وأجور بيوت مكة. وكان الثورى وبشر وجماعة من الفقهاء وأهل الورع يكرهون أن يدفع الرجل كراء بيت مكة، حتى قال الثورى: إذا طالبوك، ولم يكن لك بد من أن تعطيهم، فخُذ لهم من البيت قيمة ما أخذُوا منك.

وقال بعض السلف: كم من رجل بأرض خراسان أقرب إلى هذا البيت ممّن يطوف به؟ ويقال: إن لله عبادًا تطوف بهم الكعبة تقربًا إلى الله عز وجل.

وحدثنى شيخٌ لنا عن أبى على الكرمانى شيخنا بمكة، وكان من الأبدال إلاّ أنى سمعت هذه الحكاية منه، قال: سمعته يقول: رأيت الكعبة ذات ليلة تطوف بشخصٍ من المؤمنين، وقال لى هذا الشيخ: ربما نظرت إلى السماء واقعة على سطح الكعبة قد ماستها الكعبة، ولزقت بها، وأكثر الأبدال فى أرض الهند والزّنج وبلاد الكفرة، ويقال: لا تغرب الشمس من يومٍ إلا يطوف بهذا البيت رجلٌ من

الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلةٍ إلاّ طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سببَ رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رُفعت الكعبة ولا يرون لها أثرًا، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجّها أحد، ثم يُرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم يُنسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المُقْرِب يتوقع ولادتها.

روينا عن وهيب بن الورد المكى قال: كنتُ ذات ليلةٍ أصلى فى الحِجر، فسمعت كلامًا بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله تعالى أشكو ثم إليك يا جبريل ما ألقى من الطائفين حولى، تفكُّهَهُم فى الحديث ولغوَهم ولهوَهم، لئن لم ينتهوا من ذلك لأنتفضنَّ انتفاضةً يرجعُ كلُّ حجرٍ منّى إلى الجبل الذى قُطع منه.

وفى الخبر: «لا تقوم الساعة حتى يُرفع الرّكن والمقام».

وروى: أن الحبشة يغزُون الكعبة، فيكون أوّلهم عند الحجر الأسود، وآخرهم على ساحل البحر بجدّة، فينقضونها حجرًا حجرًا، يناول بعضهم بعضًا حتى يرمونها فى البحر.

وكذلك يذكر عن بعض الصحابة وقُرّاء الكتب السالفة: كأنى أنظر حبشيًا أصلع أجدعَ قائمًا عليها، يعنى الكعبة، هدمها بمعوله حجرًا حجرًا. وفى الخبر: «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع». فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة، ورفعه الذى ذكراه يكون بعد هدمه؛ لأنه يُبنى من ذى قبل حتى يعودَ إلى مثل حاله، ويُحَج مرارًا، ثم يُرفع بعد ذلك.

وروينا فى حديث أبى رافع عن علىٍّ عن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا أردتُ أن أخرِّب الدنيا بدأت ببيتى فخرّبته ثم أخرب الدنيا على أثره».

وليس بعد مكة مكانٌ أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، والأعمال فيها مضاعفة. روى عن النبى ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وكذلك قيل: «إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة،

كل عمل بألف عمل». وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسمائة صلاة، وكلُّ عملٍ يضاعف بخمسمائة مثله. روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة». ثم تستوى الأرض بعد ذلك فلا يبقى مندوب إليه مقصود لفضل دل الشرع عليه. كما جاء فى الخبر: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»، بعد ذلك فأى موضع صلُح فيه قلبك، وسَلِم لك دينك، واستقام فيه حالك، فهو أفضل المواضع لك، وقد جاء فى الخبر: « البلاد بلادُ الله تعالى، والخلق عباده، فأى موضع رأيت فيه رِفقًا فأقم واحمد الله تعالى». وفى الخبر المشهور: «من خُضِّر له من شىء فليلزمه، ومن جُعلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه».

وقال نعيم: رأيت الثورى قد جعل جِرابه على كتفه، وأخذ قُلَّته بيده. فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: إلى بلدٍ أملأ فيه جِرابى بدرهم. وفى حكاية أخرى: بلغنى أن قريةً فيها رُخْص، أريد أن أقيم فيها. فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال. نعم. إذا سمعتَ فى بلد برُخصٍ فاقصده، فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمِّك. وكان يقول: هذا زمانُ سوءٍ لا يُؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟[1] هذا زمان تنقُّل الرجل، ينتقل من قرية إلى قريةٍ، يفر بدينه من الفتن.

وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين؛ للنظر إليهم والتبرّك والتأدب بهم. وكان العلماء ينتقلون فى البلاد، ليُعَلِّموا ويردُّوا الخلق إلى الله تعالى ويعرِّفوا الطريق إليه، فإذا فُقد العاملون وعُدم المريدون فالزم موضعًا ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقرب صلاح قلبٍ، وأيسر سكون نفس، ولا تنزعج إلى غيره، فإنك لا تأمن أن تقع فى شرٍّ منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه.

والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(١) فكيف بهم لو أدركوا زماننا هذا؟!